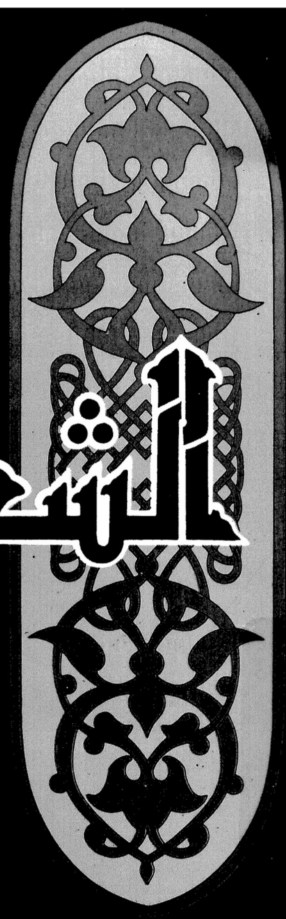
تفسير







أخبار اليوم

قطاع الثقافة

ثم تُوضِّح الآيات سبب وعلَّة إكرام الله واستجابته لنبيه زكريا ـ عليه السلام : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾ [الأنبياء]

هذه صفات ثلاث أهَّلَتْ زكريا وزوجته لهذا العطاء الإلهى ، وعلينا أن نقف أمام هذه التجربة لسيدنا زكريا ، فهى أيضاً ليستْ خاصة به إنما بكل مؤمن يُقدِّم من نفسه هذه الصفات .

لذلك ، أقول لمن يُعانى من العقم وعدم الإنجاب وضاقتْ بهم أسباب الدنيا ، وطرق باب الأطباء أن يلجأ إلى الله بما لجأ به زكريا ـ عليه السلام ـ وأهله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾ [الأنبياء] خذوها (روشتة) ربانية ، ولن تتخلف عنكم الاستجابة بإذن الله .

لكن ، لماذا هذه الصفة بالذات : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٩٠)﴾ [الأنبياء] ؟

قالوا : لأنك تلاحظ أن أصحاب العُقْم وعدم الإنجاب غالباً ما يكونون بُخَلاء مُمْسكين ، فليس عندهم ما يُشجِّعهم على الإنفاق ، فيستكثرون أن يُخرجوا شيئاً لفقير ؛ لأنه ليس ولده .

فإذا ما سارع إلى الإنفاق وسارع فى الخيرات بشتى أنواعها ، فقد تحدَّى الطبيعة وسار ضدها فى هذه المسألة ، وربما يميل هؤلاء الذين ابتلاهم الله بالعُقْم إلى الحقد على الآخرين ، أو يحملون ضغينة لمن ينجب ، فإذا طرحوا هذا الحقد ونظروا لأولاد الآخرين على أنهم أولادهم ، فعطفوا عليهم وسارعوا فى الخيرات ، ثم توجَّهوا إلى الله بالدعاء رَغَباً ورَهَباً ، فإن الله تعالى وهو المكوِّن الأعلى يخرق لهم النواميس والقوانين ، ويرزقهم الولد من حيث لا يحتسبون .

ومعنى : ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾ [الأنبياء] يعنى : راضين بقدرنا

فيهم ، راضـين بالعُقْم على أنه ابتلاء وقضـاء ، ولا يُرفع القضاء عن العبـد حتى يرضى به ، فـلا ينبغى للمـؤمن أنْ يتمـرَّد على قدر الله ، ومن الخشوع التطامن لمقادير الخَلْق فى الناس .

﴿ وَالَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

ولك أنْ تسـأل : لمـاذا يأتى ذِكْـر السـيدة مـريم ضـمن مـواكب النبـوة ؟ نقـول : لأن النبـوة اصطفـاء الله لنـبى من دون خَلْق الله ، وكوْنه يصطفى مريم من دون نساء العالمين لتلد بدون ذكورة ، فهذا نوع من الاصطفاء ، وهو اصطفاء خاص بـمريم وحدها من بين نساء العالمين ؛ لأن اصطفاء الأنبياء تكرَّر ، أمَّـا اصطفاء مريم لهذه المسألة فلم يتكرر فى غيرها أبداً .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا .. ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : عَفَّتْ وحفظتْ فَرْجها ، فلم تمكِّن منها أحداً[1] .

ومعنى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا[2] مِن رُّوحِنَا .. ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى :

---

(1) قال القـرطبى فى تفسيره (٤٥١٨/٦) : « قـيل : إن المراد بالفرج فرج القـميص ، أى : لم تعلق بثوبهـا ريبة ، أى : أنها طاهرة الأثواب . وفـروج القميص أربعـة : الكُمّان والأعلى والأسفـل . قال السـهيلى : فـلا يذهبن وهمك إلى غيـر هذا ، فـإنه من لطيف الكناية ، لأن القرآن أنزه معنى ، وأوزن لفظاً ، وألطف إشارة ، وأحـسن عبارة من أن يريد ما يذهب إليه الوهم » .

(2) أى : فى جيب درعها . قاله أبو يحى زكـريا الأنصارى فى (فتح الرحمن) (ص ٢٧١) وقال قتادة : نـفخ فى جيبها . وقال مـقاتل : نفخ فى فرجها . ذكرهمـا السيوطى فى الدر المنثور (٦٧١/٥) . والدرع : ثوب المرأة .

مسألة خاصة به ، خارجة على قانون الطبيعة ، فليس في الأمر ذكورة أو انتقاء ، إنما النفخة التي نفخها الله في آدم ، فجاءت منها كل هذه الأرواح ، هي التي نفخها في مريم ، فجاءت منها روح واحدة . فالروح هي نفسها التي قال الله فيها : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. (٢٩) ﴾ [الحجر]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١) ﴾ [الأنبياء] يعني : شيئاً عجيباً في الكون ، والعجيبة فيها أن تلدَ بدون ذكورة ، والعجيبة فيه أن يُولَد بلا أب ، فكلاهما آية لله ومعجزة .

ثم يقول الحق سبحانه بعد سَرْد لقطات من موكب الأنبياء :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ٩٢ ﴾

الأمة : الجماعة يجمعها رباط واحد من أرض أو مُلك مَلك أو دين ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ .. (٢٢) ﴾ [الزخرف] يعني : على دين .

فالمراد : هذه أمتكم أمةٌ حال كَوْنها أمةً واحدة ، لا اختلافَ فيها[1] والرسل جميعاً إنما جاءوا ليتمموا بناءً واحداً ، كما قال ﷺ : « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بَنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلاّ

(١) قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٥١٩) : « لما ذكر الأنبياء قال : هؤلاء كلهم مجتمعون على التوحيد ، فالأمة هنا بمعنى الدين الذي هو الإسلام . قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما » .

وُضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »[1] .

والمعنى أن به ﷺ تتم النبوة وتختم .

وتُطلَق الأمة على الرجل الذى يجمع خصال الخير كلها ؛ لأن الله تعالى بعثر خصال الخير فى الخَلْق ، فليس هناك مَنْ هو مَجْمع مواهب وفضائل ، إنما فى كل منا ميزةٌ وفضيلةٌ فى جانب من الجوانب ؛ ليتكامل الناس ويحتاج بعضهم إلى بعض ، ويحدث الترابط بين عناصر المجتمع ، هذا الترابط يتم إمَّا بحاجات تطوُّعية ، أو حاجات اضطرارية .

فلو تعلَّم الناس جميعاً وتخرّجوا فى الجامعة فَمنْ للمِهَن والحِرَف الأخرى ؟ مَنْ سيكنس الشوارع ، ويقضى مثل هذه الأمور ؟ لو تعطلتْ مجارى الصرف الصحى ، أيجتمع هؤلاء الدكاترة والأساتذة لإصلاحها ، ولو أصلحوها مرة فهذا تطوُّع .

أمّا المصالح العامة فلا تقوم على التطوع إنما تقوم على الحاجة والاضطرار ، ولولا هذه الحاجة لما خرجَ عامل الصرف الصحى فى الصباح إلى هذا العمل الشاقّ المنفّر ، لكن كيف وفى رقبته مسئولية أُسْرة وأولاد ونفقات ؟

وسبق أنْ قُلْنا : ينبغى ألاَّ يغترَّ المرء بما عنده من مواهب ومميزات ، ولا يتعالى بها على خَلْق الله ، وعليه أنْ يسأل عَمَّا عند الآخرين من مواهب يحتاج هو إليها ، ولا يؤديها بنفسه .

إذن : الحاجة هى الرابطة فى المجتمع ، ولو كانَ التطوّع

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣٥) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٨٦) كتاب الفضائل (حديث ٢٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والتفضّل فلن نحقق شيئاً ، فلو قلنا للعامل : تفضل بكنس الشارع لوجدَ ألْفَ عذر يعتذر به ، أما إنْ كان أولاده سيموتون جوعاً إن لم يعمل فلا شكَّ أنه سيُسرع ويُبادر .

فالحقيقة أن كل فرد فى المجتمع لا يخدم إلا نفسه ، فكما تنفع الآخرين تنتفع بهم ؛ لذلك إياك أنْ تحسد صاحب التفوق على تفوّقه فى أمر من الأمور ؛ لأن تفوقه فى النهاية عائد عليك .

وكما نقول هذه المسائل فى أمور الدنيا نقولها فى أمور الآخرة ، حين نرى صاحب التديُّن ، وصاحب الخُلق والالتزام لا نهزأ به ولا نسخر منه ، كما يحلو للبعض ؛ لأن صلاحه سيعود عليك ، وسوف تنتفع بتديُّنه واستقامته ولعلنا نُرزَق بسبب هؤلاء .

وقد يكون فى البيت الواحد فُتوات وأذكياء ومتعلمون وفيهم مُعوَّق أو مجنون أو مجذوب ، فترى الجميع يحتقرونه ، ويُهوِّنون من شأنه ، أو تراه منبوذاً بين هؤلاء مُبْعَداً ، لا يشرُف بمعرفته أحد ، وربما يعيشون جميعاً فى ظلِّه ويُرزَقون كرامة له .

وكثيراً ما نرى الناس يغضبون وينقمون على قضاء الله إن رزقهم بمولود فيه عيب أو إعاقة ، ووالله لو رضيتَ به وتقبلْتَ قضاء الله فيه ، لكان هو الظل الظليل لك .

فهؤلاء خُلقوا هكذا لحكمة ، حتى لا نتمرد على صَنْعة الله فى كَوْنه ، وحتى يشعر أهل النعمة والسلامة والصحة بفضل الله عليهم ، ولنعلم أن الله تعالى لا يسلب شيئاً من عبده إلاّ وقد أعطاه عِوَضاً عنه .

ولك أن تلاحظ مثلاً أحوال الناس المجاذيب الذين تراهم فى أىِّ

مكان مُهملين يستقلهم النـاس ، وينفرون من هيئتهم الرثَّة ، ومع ذلك ترى أصحاب الجـاه والسلطان إذا نزلتْ بهم ضائقة وأعيَتْـهم الأسباب يلجئـون لمثل هؤلاء المجاذيب يلتـمسون منهم البركـة والدعاء ، وهذا فى حَدِّ ذاته أسـمى ما يمكن أن يتطلع إليه أهـل الجاه وأهل السلطان والنفوذ ، أن تكون كلمتهم مسمـوعةً وأمرهم مُطاعاً ، وأن يلجأ الناس إليهم كما لجئوا إلى هذا المجذوب المسكين .

فإذا ما أجرى الله الخير على يد هذا الـشيخ المجذوب ترى السيد العظيم يتـمـحك فـيه ، ويدعـوه إلى طعـامـه ، ويدفع عنه أذى الناس ويحـتضنه ، لأنه جـرَّب وعلم أن لديه فـيضـاً من فـيض الله وكرامـة يختص الله بها مَنْ يشاء من عباده ، ونحن جـميعاً عباد الله ليس فينا مَنْ هو ابن لله ، أو بينه وبين الله قرابة .

وإنْ كان العقل هو أعزّ ما يعتز به الإنسان ، وهو زينته وحليته ، فلك أن تنظر إلى المجنون الذى فقد العـقل ، وحُرِم هذه الآلة الغالية ، وترى الناس يشيرون إليه : هذا مجنون ، نعم هو مجنون ، لكن انظر إلى سلوكه : هل رأيتم مجنوناً يسرق ؟ هل رأيتم مجنوناً يزنى ؟ هل رأيتم مجنوناً انتحر ؟

إذن : مع كونه مجنوناً إلا أنه مدرك لنفسه تماماً ؛ لأن خالقه عز وجل وإنْ سلبه العـقل إلا أنه أعطاه غريزة تحكمه كمـا تحكم الغريزة الحيوان ، وهل رأيتم حماراً ألقى بنفسه مثلاً أمام القطار ؟

إذن : علينا ألاَّ نُحقِّر هؤلاء ، وألاَّ نسـتقل بهم فقد عوَّضـهم الله عما سلبــه منهم . ومنّا مَنْ يـسـعى ليــصل إلى مـا وصلوا هـم إليـه ولا يستطيع ، ومَنْ منَّا لا يتـمنى أن يكون مثل هذا المجذوب الذى يـتمسَّح الناس فيـه ، ويطَلبون منه البركـة والدعاء ؟ وأىٌّ عظمة يطلبهـا الإنسان

فوق هذا ؟ ويكفى هذا أنه لا يُسأَلُ عَمّا يفعل فى الدنيا ، ولا يُسْأل كذلك فى الآخرة .

نعود إلى قول الله تعالى : ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً .. (٩٢)﴾ [الأنبياء] فمن معانى أمة : الرجل الذى جمع خصال الخير كلها ؛ لذلك وصف الله نبيه إبراهيم بأنه أمة ، فقال : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً[1] .. (١٢٠)﴾ [النحل]

يعنى : جمع من خصال الخير ما لا يوجد إلا فى أمة كاملة .

والأمة لا تكون واحدة ، إلا إذا صدر تكوينها المنهجى عن إله واحد ، فلو كان تكوينها من متعدد لذهب كُلُّ إله بما خلق ، ولعلاَ بعضهم على بعض ، ولفسد الحال . إذن : كما قال سبحانه : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

فلا تكون الأمة واحدة إلا إذا استقبلت أوامرها من إله واحد وخضعت لمعبود واحد ، فإنْ نسيتْ هذا الإله الواحد تضاربتْ وتشتتتْ .

وكأن الحق سبحانه يقول : أنتم ستجربون أمة واحدة ، تسودون بها الدنيا وتنطلق دعوتكم من أمة أمية لا تعرف ثقافة ، ولا تعرف علماً ، ولم تتمرس بحكم الأمم ؛ لأنها كانت أمة قبلية ، لكل قبيلة قانونها وسيادتها وقيادتها .

ثم ينزل لكم نظام يجمع الدنيا كلها بحضاراتها ، نظام يطوى تحت جناحه حضارة فارس وحضارة الروم ويُطوِّعها ، ولو أنكم أمة

---

(١) سُئل ابن مسعود : ما الأمة ؟ قال : الذى يُعلِّم الناس الخير . وقال قتادة : إمام هدى يُقتدَى به ، وتُتبع سنته . [الدر المنثور للسيوطى ٥/١٧٦] .

مثقفة لقالوا قفزة حضارية ، إنما هذه أمة أمية ، ونبيها أيضاً أُمِّى إذن : فلا بُدَّ أن يكون المنهج الذى جاء به ليسلب هذه الحضارات عِزَّها ومجدَها منهجاً أعلى من كل هذه المناهج والحضارات..

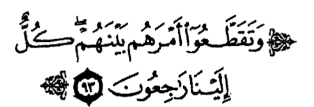
ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء] أى : التزموا بمنهجى لتظلوا أمة واحدة ، واختار صفة الربوبية فلم يقُلْ : إلهكم ؛ لأن الرب هو الذى خلق ورزق وربى ، أمّا الإله فهو الذى يطلب التكاليف .

فالمعنى : ما دُمْتُ أنا ربكم الذى خلقكم من عَدَم ، وأمدكم من عُدْم ، وأنا القيوم على مصالحكم ، أكلؤكم بالليل والنهار ، وأرزق حتى العاصى والكافر بى ، فأنا أَوْلَى بالعبادة ، ولا يليق بكم أن أصنع معكم هذا كله وتذهبون إلى إله غيرى ، هذا منطق العقل السليم ، وكما يقولون (اللى يأكل لقمتى يسمع كلمتى) .

ومن العبادة أن تطيع الله فى أمره ونَهْيه ؛ لأن ثمرة هذه الطاعة عائدة عليك بالنفع ، فلله تعالى صفات الكمال الأزلىّ قبل أنْ يخلق مَنْ يطيعه ، فطاعتك لن تزيد شيئاً فى مُلْك الله ، ومعصيتك لن تنتقص منه شيئاً . إذن : فالأمر راجع إليك ، وربك يُثيبك على فعل هو فى الحقيقة لصالحك .

لكن ، هل سمع الناس هذا النداء وعملوا بمقتضاه ، فكانوا أمة واحدة كهذه الأمة التى أدخلتْ الدنيا فى رحاب الإسلام فى نصف قرن ؟ هذه الأمة التى ما زلنا نرى أثرها فى البلاد التى تمردتْ على العروبة ، وعلى لغة القرآن ، ومع ذلك هم مسلمون على لغاتهم وعلى حضارتهم ، إن الدين الذى يصنع هذا ، والأمة الواحدة التى تحمَّلتْ هذه المسئولية ما كان ينبغى أن نتخلى عنها .

والسؤال : هل بقيت الأمة الواحدة ؟ تجيب الآيات :



أى : صاروا شيعاً وأحزاباً وجماعات وطوائف ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩) ﴾ [الأنعام]

لماذا ، لست منهم فى شىء ؟ لأنهم يقضون على واحدية الأمة ، ولا يقضون على واحدية الأمة إلا إذا اختلفتْ ، ولا تختلف الأمة إلا إذا تعددتْ مناهجها ، هنا ينشأ الخلاف ، أمَّا إنْ صدروا جميعاً عن منهج واحد فلن يختلفوا .

وما داموا قد تقطعوا أمرهم بينهم ، فصاروا قطَعاً مختلفة ، لكل قطعة منهج وقانون ، ولكل قطعة تكاليف ، ولكل قطعة راية ، وكأن آلهتهم متعددة ، فهل سيُتركون على هذا الحال ، أم سيعودون إلينا فى النهاية ؟

﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) ﴾ [الأنبياء] إذن : أنتم أمة واحدة فى الخلْق من البداية ، وأمة واحدة فى المرجع وفى النهاية ، فلماذا تختلفون فى وسط الطريق ؟

إذن : الاختلاف ناشىء من اختلاف المنهج ، وكان ينبغى أن يكون واضع المنهج واحداً . وقد جاء النبى ﷺ خَاتَماً للرسالات ، وجاءت شريعته جامعة لمزايا الشرائع السابقة ، بل وتزيد عليها المزايا التى تتطلبها العصور التى تلى بعثته .

فكان المفروض أن تجتمع الأمة المؤمنة على ذلك المنهج الجامع

المانع الشامل ، الذى لا يمكن أن يستدرك عليه ، وبذلك تتحقق وحدة الأمة ، وتصدر فى تكليفاتها عن إله واحد ، فلا يكون فيها مَدْخَل للأهواء ولا للسلطات الزمنية أو الأغراض الدنيئة .

لذلك ، إذا تعددت الجماعات التى تقول بالإسلام وتفرقت نقول لهم : كونوا جماعة واحدة ، وإلا فالحق مع أىٍّ جماعة منكم ؟! لأن الله تعالى خاطب نبيه ﷺ بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ..(١٥٩)﴾ [الأنعام]

ولا يتفرق الداعون لدعوة واحدة إلا باتباع الأهواء والأغراض ، أما الدين الحق فهو الذى يأتى على هوى السماء ، موافقاً لما ارتضاه الله تعالى لخَلْقه .

لقد انفضَّ المؤمنون عن الجامع الذى يجمعهم بأمر الله ، فانفضت عنهم الوحدة ، وتدابروا حتى لم يَعُدْ يجمعهم إلا قَوْلُ « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أما مناهجهم وقوانينهم فقد أخذوها من هنا أو من هناك ، وسوف تعضهم هذه القوانين ، وسوف تخذلهم هذه الحضارات ، ويرون أثرها السيء ، ثم يعودون فى النهاية إلى الإسلام فهو مرجعهم الوحيد ، كما نسمع الآن نداء لا حَلَّ إلا الإسلام .

نعم ، الإسلام حَلٌّ للمشاكل والأزمات والخلافات والزعامات ، حَلٌّ للتعددية التى أضعفتْ المسلمين وقوَّضَتْ أُخوَّتهم التى قال الله فيها : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .. (١٠٣)﴾ [آل عمران]

ووالله ، لو عُدْنا إلى حبل الله الواحد فتمسَّكنا به ، ولم تلعب بنا الأهواء لَعُدْنا إلى الأمة الواحدة التى سادتْ الدنيا كلها .

إذن : ﴿إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣)﴾ [الأنبياء] أى : فى الآخرة للحساب ، وأنا أقول يا رب .. لعل هذا الرجوع يكون فى الدنيا بأنْ تعضَّنا قوانين البشر ، فنفزع إلى الله ونعود إليه من جديد ، فيعود لنا مجدنا ، ويصدُق فينا قَوْل الرسول ﷺ : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ غريباً ، فطوبى للغرباء »[1].

ويُعزِّز هذا الفهم ويُقوِّى هذا الرجاء قول الله تعالى بعدها :

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ (٩٤)﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يستأنف معنا العظة بالعمل الصالح ليعطينا الأمل لو رجعنا إلى الله ، والدنيا كلها تَشهد أن أىَّ مبدأ باطل ، أو شعار زائف زائل يُزخرفون به أهواءهم لا يلبث أنْ ينهار ولو بَعْد حين ، ويتبين أصحابه أنه خطأ ويعدلون عنه .

ومثال ذلك الفكر الشيوعى الذى ساد روسيا منذ عام ١٩١٧ وانتهكت فى سبيله الحرمات ، وسفكتْ الدماء ، وهدمتْ البيوت ، وأخذت الثروات ، وبعد أن كانت أمة تصدر الغذاء لدول العالم أصبحت الآن تتسول على دول العالم ، وهم أول مَنْ ضَجَّ من هذا الفكر وعانى من هذه القوانين .

وقوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ .. (٩٤)﴾ [الأنبياء] ربط العمل الصالح بالإيمان ؛ لأنه مُنطلَق المؤمن فى كُلِّ ما يأتى وفى كُلِّ ما يدع ؛ لينال بعمله سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

أمّا مَنْ يعمل الصالح لذات الصلاح ومن منطلق الإنسانية

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٥) كتاب الإيمان ، وابن ماجة فى سننه (٣٩٨٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والمروءة ، ولا يخلو هذا كله فى النهاية عن أهـواء وأغراض ، فليأخذ نصيبه فى الدنيـا ، ويحظى فيها بالتكريم والسيـادة والسُّمْعة ، وليس . له نصيب فى ثواب الآخرة ؛ لأنه فَعَل الخير وليس فى باله الله .

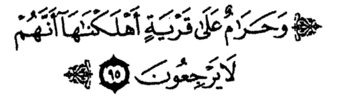
والحق سبحانه يعطينا مثالاً لذلك فى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. (٣٩)﴾ [النور]

يعنى : فـوجىء بوجود إله يحـاسبه ويـجازيه ، وهذه مســألة لم تكُنْ على باله ، فيقـول له : عملتَ ليقال وقد قيل . وانتـهت المسألة ؛ لذلك يقـول تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ .. (٢٠)﴾ [الشورى] أى : نعطيه أجره فى عالم آخر لا نهاية له ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

لأنه عَمِلَ للناس ، فليأخذ أجره مـنهم ، يُخلِّدون ذكراه ، ويُقيمون له المعارض والتماثيل .. الخ .

وقوله تـعالى : ﴿فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ .. (٩٤)﴾ [الأنبياء] يعنى : لا نبخســه حَقَّه ولا نجحد سَعْيه أبداً ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤)﴾ [الأنبياء] نسجِّل له أعمـاله ونحفظها ، والمفـروض أن الإنسان هو الذى يُسجِّل لنفـسه ، فـإنْ سجَّل لك عـملك ربُّك الذى يُثيـبك عليه ، وســجَّله على نفسه ، فلا شكَّ أنه تسجيل دقيق لا يبخسك مثقال ذرة من عملك .

ثم يقول الحق سبحانه :



﴿ حَرَامٌ .. (٩٥) ﴾ [الأنبياء] يعنى : ممتنع ، لا يجب أن يكون ، والقرية : أى قرية أهلكناها ؛ لأنها كذَّبَتْ الرسل ، ووقفتْ منهم موقف اللَّدَد والعناد والمعارضة ، فأهلكها الله بذنوبها فى الدنيا ، أيُعقَلُ بعد هذا أن نتركها فى الآخرة من غير أنْ نأخذها بذنوبها ؟

لا بُدَّ - إذن - أن ترجع إلينا فى الآخرة لنحاسبها الحساب الدائم الخالد ، فلا نكتفى بحساب الدنيا المنتهى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ[1] يَنسِلُونَ (٩٦) ﴾

وردتْ قصة يأجوج ومأجوج فى آخر سورة الكهف ، حينما سُئل النبى ﷺ عن الرجل الجوَّال الذى طاف الأرض ، فنزلت : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) ﴾ [الكهف]

وقد تكلم العلماء فى ذى القرنين ، منهم مَنْ قال : هو قورش ومنهم مَنْ قال هو : الإسكندر الأكبر . والقرآن لا يعنيه الشخص وإلاَّ لَذكره باسمه ، فالقرآن لا يُؤرِّخ له ، ولا يقيم له تمثالاً ، إنما يريد التركيز على الأوصاف التى تعنى الحق وتعنى الخَلْق .

فيكفى أن نعلم أنه إنسان مكَّنَه الله فى الأرض . يعنى : أعطاه من أسباب القوة وأسباب المهابة والسيطرة ، وأعطاه من كُلِّ مُقوِّمات

(١) الحدب : ما ارتفع من الأرض . أى أنهم يحضرون من كل جانب ، ولو كان مرتفعاً شاقاً لا يعوقهم شىء لأنهم فى غير المرتفع أسرع والسير فيه أيسر ، فهم يأتون من كل جهة ولو شقت . [القاموس القويم ١/١٤٤] .

القوة : أعطاه المال والعلم والجيوش ، فلم يكتف بذلك كله ، بل ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الكهف] يعنى : أخذ بالأسباب التى تؤدِّى إلى الخير .

وسبق أنْ تحدثنا عن تشخيص البطل فى قصص القرآن ؛ لأن القرآن لا يُؤرِّخ للشخصية ، ولا يُعطى لها خصوصية ، وإنما يريدها عامة لتكون مثلاً يُحتذَى ، ويتم بها الاعتبار ، وتُحدِث الأثر المراد من القصة .

فما يعنينا فى قصة ذى القرنين أنه رجل مُكِّن فى الأرض ، وكان من صفاته كذا وكذا ، وما يعنينا من أهل الكهف أنهم فتية آمنوا بربهم وتمسَّكوا بدينهم وعقيدتهم وضَحَّوْا فى سبيلها ، لا يهمنا الأشخاص ولا الزمان ولا المكان ولا العدد .

لذلك ؛ أبهم القرآن كل هذه المسائل ، فأىّ فتية ، فى أىّ زمان ، وفى أىِّ مكان ، وبأىِّ أسماء يمكن أن يقفوا هذا الموقف الإيمانى ، ولو شخَّصناهم وعيَّناهم لَقالَ الناس : إنها حادثة خاصة بهؤلاء ، أو أنهم نماذج لا تتكرر ؛ لذلك أبهمهم القرآن ليكونوا عبرة وأُسْوة تسير فى الزمان كله .

كذلك ، لما أراد القرآن أنْ يضرب مثلاً للذين كفروا ذكر امرأة نوح وامرأة لوط ولم يُعيِّنهما ، وكذلك ضرب مثلاً للذين آمنوا بامرأة فرعون ولم يذكر مَنْ هى[1] ، فالغرض من ضَرْب هذه الأمثال ليس الأشخاص ، إنما لنعلم أن للمرأة حريةَ العقيدة واستقلاليةَ الرأى ، فليست هى تابعة لأحد ، بدليل أن نوحاً ولوطاً لم يتمكَّن كل منهما من هداية امرأته .

(١) قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم] .

وفرعون الكافر الذى ادَّعَى الألوهيـة ، لم يستطع أن يمنع زوجته من الإيمان ، وهى التى قالت : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) ﴾ [التحريم]

إذن : مـا يعنينا فـى قصـة « ذى القـرنـين » أن الله مكَّن له فى الأرض وأعطاه كُلَّ أسـباب القـوة والسـيطرة ؛ لذلك ائتـمنه أنْ يكونَ ميزاناً للخير وللحق ، وفوَّضَهُ أن يقضى فى الخَلْق بما يراه من الحق والعدل .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) ﴾ [الكهف]

لأننا مكَّنَّاه وفـوَّضناه ، فاسـتعـمل التمكين فى مـوضعـه ، وأخذ الأمانة بحقِّها ، فقال : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) ﴾ [الكهف] أى : نُعذِّبه على قَدْر مـقدرتنا ، ثم يُرَدُّ إلى ربه فيُعذِّبه على قَدْر قدرته تعالى .

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ﴾ [الكهف]

وهكذا يكون دستور الحياة من الحاكم الممكَّن فى الخَلْق ، دستور الثواب والعـقاب الذى تستـقيم به أمور البـلاد والعباد ، فـحين يرى تقصيـراً لا بُدَّ أنْ يأخذ على يد صاحبـه مهما تكُنْ منزلتـه ، لا يخافه ولا ينافقه ولا يخشى فى الله لومة لائم ، وإنْ رأى المـحسن المجتهد يُثيبه ويكافئه .

وهذا القانون نراه فى مـجتمعنا يكاد يكون مُـعطّلاً بين العاملين ، فـاختلط الحـابل بالنابل ، وتدهـورتْ الأمور ، ودخلت بينـنا مقـاييس

أخرى للثواب وللعقاب ما أنزل الله بها من سلطان ، فانقلبتْ الموازين ، حيث تبجح الكسالى ، وأُحبط المجدُّون المحسنون .

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ [الكهف]

هذا كُلُّ ما أخبر الله به ، ويبدو أنه وصل فى تجواله العام إلى بلاد تظل الشمس بها مشرقة ثلاثة أو ستةَ أشهر لا تغرب ؛ لذلك لم يجد لهم من دون الشمس ستْراً يسترها أىْ ظلمة ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ [الكهف]

ومع ذلك احتال أن يفهم منهم ، ويخاطبهم ؛ لحرصه على نفعهم وما يصلحهم ، وهذه صفة الحاكم المؤمن حين يُمكَّن فى الأرض ، وتُعطَى له أسباب القيادة ، ويُفوَّض فى خَلْق الله ، ولو لم يكُنْ حريصاً على نفعهم لوجد العذر فى كونه لا يفهم منهم ولا يفهمون منه .

فلما توصلوا إلى لغة مشتركة ، ربما هى لغة الإشارة التى نتفاهم بها مع الأخرس مثلاً : ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا[1] عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف]

ثم أمرهم أن يأتوا بقطَع الحديد ، فأشعل فيه النار حتى احمرَّ فقال ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الكهف] وهكذا صنع لهم السدَّ الذى يحميهم من هؤلاء القوم ، فلم يَقْصُر نفعه لهم على هذه القضية ذاتها ، إنما نفعهم نَفْعاً يعطيهم الخير والقوة فى ألاَّ يتعرضوا لمثلها

---

(١) الخَرْج والخراج : ما يخرجه صاحب المال للعامل عنده من الأجر جزاء عمله . أو ما يُخرجه من الزكاة للإمام . [القاموس القويم ١/١٩٠] .

بعد ذلك ، عملاً بالحكمة التى تقول : لا تعطنى سمكة ، ولكن علمنى كيف أصطاد .

ذلك لأنه أشركهم فى العمل ؛ ليشعروا بأهميته ويتمسكوا بالمحافظة عليه وصيانته ، وإذا ما تعرضوا لمثل هذا الموقف لا ينتظرون مَنْ يصنع لهم .

هذا هو النموذج الذى تُقدِّمه قصة « ذى القرنين » وهو نموذج صالح لكل الزمان ولكل المكان ولكل حاكم مكَّنه الله فى الأرض ، وألقى بين يديه أزمَّة الأمور ، وفى حديث أفضل العمل يقول ﷺ : « تعين صانعاً ، أو تصنع لأخرق »[1] .

وقد تضاربتْ الأقوال حول : مَنْ هم يأجوج ومأجوج ، فمنْ قائل : هم التتار . وآخر قال : المغول . وآخر قال : هم الحتيت ، أو السرديال ، أو قبائل الهُونْ .

ولو كان فى تحديدهم فائدة لعيَّنهم القرآن ، إنما المهم من قصتهم أنهم قومٌ مفسدون فى الأرض لا يتركون الصالح على صلاحه ، فإذا ما تصدَّى لهم الممكَّن فى الأرض فعليه أن يحول بينهم وبين هذا الإفساد فى غيرهم ، وعلينا نحن ألاَّ نُفسد الصالح كهؤلاء ، إنما نترك الصالح على صلاحه ، بل ونزيده صلاحاً .

وفى بناء ذى القرنين للسد دروس يجب أنْ يعيها أولو الأمر الذين يتوَّلْون مصالح الخَلْق ، من هذه الدروس أنه لم يقف عند طلبهم

(١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان بالله والجهاد فى سبيله . قال قلت : أىّ الرقاب أفضل ؟ قال : أنفسُها عند أهلها وأكثرها ثمناً . قال قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : « تعين صانعاً أو تصنع لأخرق » أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٤) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٢٥١٨) بلفظ : « تعين ضائعاً » .

فى بناء سدٍّ يمنع عنهم أذى عــدوهم ، إنما اجتـهد وترقَّى بالمـسألة إلى ما هو أفضل لهم ، فالسدُّ الأصـمّ المتـماسك كقطعة واحدة يسـهل هَدْمه أو النفـاذ منه ؛ لذلك قال : ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥)﴾ [الكهف]

لقد طلبـوا سداً وهو يقول : رَدْمـاً ، لقد رقَّى لهم الفكرة ، وأراد أن يصنع لهم سداً على هيئة خـاصة تمتصّ الصدمات ، ولا تؤثر فى بنائه ؛ لأنه جعل بين الجـانبين رَدْماً كـأنه سوستة تُعطى السـدّ نوعاً من المـرونة . وهـكذا يجب أن يكون المـؤمن عنـد تحـمُّل مسـئوليـة الخَلْق .

ولما عرضـوا عليه المال نظير عـمله أبى ، وقال : ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ .. (٩٥)﴾ [الكهف] أى : عندى المال الكثـير من عطاء الله لكن أعينونى بما لديكم من قـوة . إذن : زكاة القوة أنْ تمنع الفساد من الغير .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ.. (٩٦)﴾ [الأنبـياء] فلها عـلاقة بقـوله تعالى : ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ.. (٩٣)﴾ [الأنبياء] فتقطّـع أهل الخير وتفرُّقهـم يُجرِّئ عليهم أصحـاب الفساد ، وأقلّ ما يقـولونه فى حقِّهم أنهم لو كانوا على خـير لنفعوا أنفـسهم ، فدعُـوكم من كلامهـم ، وهكذا يفُتُّ أهل الباطل فى عَـضُدِ أهل الحق ، ويصرفون الناس عنهم .

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ .. (٩٦)﴾ [الأنبياء] يعنى : جاءت عناصر الفســاد والفتنة فى الكون ، وعناصر الفســاد والفتنة لا تتمكن ولا تجد الفـرصة والسلطة الزمنية إلا إذا غفل أهل الحق وتفـرقوا فلم يردوهم ، ويأخذوا على أيديهم .

ويأجوج ومأجوج هم أهل الفساد فى كل زمان ومكان ، فجنكيزخان الذى هدم أول ولاية إسلامية فى خوارزم ، وكان عليها الملك قطب أرسلان ، ثم جاء من ذريته الثالثة هولاكو الذى دخل بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية وخرَّبها وقتل أهلها حتى سالتْ الدماء ، وألقى بالكتب الإسلامية فى النهر حتى كانت قنطرة يعبرون عليها . هؤلاء الذين نُسمِّيهم التتار .

إذن : فالقرآن قَصَّ علينا من التاريخ القديم قصة يأجوج ومأجوج أيام ذى القرنين ، ثم رأيناهم فى حياتنا الإسلامية ، وشاء الله أن يستفيد المسلمون من هجمات هؤلاء البرابرة ، وأن تتجمع ولاياتهم ويصدُّوا هجمات التتار على أرض مصر بقيادة قطز والظاهر بيبرس ، وهما مثالان للممكَّنين فى الأرض ، مع أنهما من المماليك .

هذه الهجمات التترية للمفسدين فى الأرض كانت هجمات همجية وحشية ، وقد تجمَّع أحفاد هؤلاء من يأجوج ومأجوج العصر الحديث فى هجمات مدنية تغزونا بحضارتها ، إنهم الصليبيون الذين انهزموا أمام وحدة المسلمين بقيادة صلاح الدين .

وهكذا على مرِّ التاريخ ننتصر إذا كنا أمة واحدة ، ونُهزَم إذا تفرّقنا وتقطّعنا أمماً وأحزاباً ، وهذه حقائق تُثبت صدْق القرآن فيما وجَّهنا إليه من الوحدة وعدم التفرق .

ثم يقول تعالى : ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء]

الحدب : المكان المرتفع ، نقول : فلان أحدب الظهر يعنى : فى ظهره منطقة مرتفعة ، وكذلك هؤلاء المفسدون أتوْا من أماكن مرتفعة فى هضبة شمال الصين . ومعنى ﴿يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء] يعنى : يسرعون ، ومنه نقول : انسلَّ القماش ؛ لأن القماش مُكوَّن من سُدى

ولُحمة ، يعنى خيوط طولية وخيوط عرضية ، تتداخل فتكوّن القماش ، فنسل القماش أن تنزع خيوط العرض وتفكّ تداخلها مع خيوط الطول ، ولا ينزع خيوط الطول لأنها دائماً مُحكَمة بثَنْى السُّدَى على اللحمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ(١) أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

فكوْنُ أهل الفساد يأتون مُسْرعين من كل حَدَب وصَوْب إلا أن فسادهم لن يطول ، فقد اقتربت القيامة ، قال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ [القمر] وقال : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾ ﴾ [النحل]

وهذا تنبيه للغافل ، وتحذير للباغى من أهل الفساد ، وتطمين ورجاء للمظلومين المستضعفين المعتدَى عليهم : اطمئنوا فقد قرب وقت الجزاء .

﴿ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنبياء] والوعد الحق أى : الصادق الذى يملك صاحبه أن يُنفّذه ، فقد تَعد وعداً ولا تملك تنفيذه فهو وَعْد ، لكنه وَعْد باطل ، فالوعد يختلف حَسْب مروءة الواعد وإمكانياته وقدرته على إنفاذ ما وعد به .

(١) شخص بصره : انفتحت عيناه فلا تطرف ، من الخوف والفزع والحيرة ، وهو كناية عن شدة الهول والفزع يوم القيامة . [القاموس القويم ١/٣٤٣] .

لكن مهما كانت عندك من إمكانيات ، ومهما ملكتَ من أسباب التنفيذ ، أتضمن أن تُمكِّنك الظروف والأحوال من التنفيذ ؟ ولا يملك هذا كله إلا الله عز وجل ، فإذا وعد حقق ما وعد به ، فالوعد الحق - إذن - هو وعد الله .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء] فتنبه ولا تَقِسْ الدنيا بعمرها الأساسى ، إنما قِسْ الدنيا بعمرك فيها ، فهذه هى الدنيا بالنسبة لك ، ولا دَخْلَ لك بدنيا غيرك ، فإذا كنتَ لا تعلم متى تفارق دنياك فلا شكَّ أن عمرك قريب ، واقترب الوعد الحق بالنسبة لك .

وكذلك مدة مُكْثك فى قبرك إلى أن تقوم الساعة ستمر عليك كساعة من نهار ، كما قال سبحانه : ﴿ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ .. (٤٥) ﴾ [يونس]

ولو تنبَّه كل منّا إلى إخفاء الله لأجله ، لعلم أن فى هذا الإخفاء أعظمَ البيان ، فحين أخفاه ترقبناه فى كل طَرْفة عَيْن ، وتنفُّس نَفَس ؛ لذلك يقولون : « مَن مات قامت قيامته »[1] ، لأن القيامة تعنى الحساب والجزاء على الأعمال ، ومَنْ مات انقطع عمله ، وطُويَتْ صحيفته .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء]

وَعْد الله هنا هو القيامة ، وهى تفاجئنا وتأتينا بغتة ؛ لذلك نقول فى (فَإِذَا) أنها الفجائية ، كما تقول : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب ،

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنىً كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسَّعه عليكم ، الموت القيامة » .

يعنى : فوجئت به ، وهكذا ساعةَ تقوم الساعة سوف تُفَاجِىء الجميع ، لا يدرى أحد ماذا يفعل .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء] وشخوص البصر يأتى حين ترى شيئاً لا تتوقعه ، ولم تحسب حسابه ، فتنظر مُنْدهشاً يجمد جفنُك الأعلى الذى يتحرك على العين ، فلا تستطيع حتى أنْ ترمش أو تطرف .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ [إبراهيم]

وإذا أردتَ أن ترى شُخوص البصر فانظر إلى شخص يُفَاجأ بشيء لم يكُنْ فى باله ، فتراه ـ بلا شعور وبغريزته التكوينية ـ شاخصَ البصر ، لا ينزل جفنه .

ثم يقولون : ﴿ يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء]

فلم يقتصر الموقف على شخوص البصر إنما تتحرك أيضاً أدوات الإدراك فيقول اللسان : (يَا وَيْلَنَا) وهذا نداء للويل أى : جاء وقتُك فلم يَعُدْ أمامهم إلا أنْ يقولوا : يا عذاب هذا أوانك فاحضر .

والويل : هو الهلاك السريع ينادونه ، فهل يطلب الإنسان الهلاكَ ، ويدعو به لنفسه ؟ نقول : نعم ، حين يفعل الإنسان الفعلَ ويجد عواقبه السيئة ، وتواجهه الحقيقة المرّة يميل إلى تعذيب نفسه ، ألاَ تسمع مثل هؤلاء يقولون : أنا أستحق .. أنا أستاهل الضرب ..؟ إنه لَوْم النفس وتأنيبها على ما كان منها ، فهى التى أوقعتْه فى هذه الورطة .

لذلك يقول سبحانه : ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف]

فلماذا لا يُؤنِّب نفسه ، ويطلب لها العذاب ، وهى التى أردتْه فى التهلكة ، ففى هذا الموقف تنقلب موازينهم التى اعتادوها فى الدنيا ، فالأصدقاء فى الشر وفى المعصية هم الآن الأعداء .

﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا .. ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء] لم يكن هذا الموقف فى بالنا ، ولم نعمل له حساباً ، والغفلة : أنْ تدرأ عن بالك ما يجب أن يكون على بالك دائماً .

لكن ، أىّ غفلة هذه والله ـ عز وجل ـ يُذكِّرنا بهذا الموقف فى كل وقت من ليل أو نهار ، ألاَ ترى أنه سبحانه سَمَّى القرآن ذكْراً ليزيح عنّا هذه الغفلة ، فكلما غفلتَ ذكّرك ، وهزموا جدك ، وأثار عواطفك .

إذن : المسألة ليست غفلة ؛ لذلك نراهم يستدركون على كلامهم ، فيقولون : ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء] لأنهم تذكَّروا أن الله تعالى طالما هَزَّ عواطفهم ، وحرَّك مواجيدهم ناحية الإيمان ، فلم يستجيبوا .

لذلك اعترفوا هنا بظلمهم ، ولم يستطيعوا إنكاره فى مثل هذا الموقف ، فلم يعُدْ الكذب مُجْدياً ، ولعلّهم يلتمسون بصدقهم هذا نوعاً من الرحمة ، ويظنون أن الصدق نافعهم ، لكن هيهات .

وكأن الحق سبحانه يحكى عنهم هذه المواجهة حين تفاجئهم القيامة بأهوالها ، فتشخص لها أبصارهم ، ويقول بعضهم ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا .. ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء] فيردّ عليهم إخوانهم : أىّ غفلة هذه ، وقد كان الله يُذكِّرنا بالقيامة وبهذا الموقف فى كل وقت ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء]

و (بَلْ) حرف إضراب عن الكلام السـابق ، وإثبات للكلام اللاحق ، وهكذا يُراجِعون أنفسهم ، ويُواجِه بعضهم بعضاً ، لكن بعد فوات الأوان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ[1] جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) ﴾

فالذين اتخذتموهم آلهة من دون الله من الأصنام والأوثان والشمس والقمر والأشجار سيسبقونكم إلى جهنم لـنقطع عليكم أيَّ أمل فى النجاة ؛ لأنهم حين يروْنَ العذاب ربما تذكّروا هؤلاء ، وفكَّروا فى اللجوء إليهم والاستنجاد بهم ، لعلّهم يُخرجونهم من هذا المأزق ، وقد سبق أنْ قالوا عنهم : ﴿ هَـٰؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ .. (١٨) ﴾ [يونس]

وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر]

لذلك ، يجمعهم الله جميعاً فى جهنم ليقطع عنهم الآمال ، ويبدو خجل المعبود وخيبة العابد ؛ لأنه جاء النارَ فوجد معبوده قد سبقه إليها .. لكن ، هل هذا الكلام على إطلاقه فقد عبد الكفارُ الأصنامَ ، ومنهم مَنْ عبدوا عيسى عليه السلام ، ومنهم مَنْ عبدوا عُزَيْراً ، ومنهم مَنْ عبدوا الملائكة ، فهل سيُجمع هؤلاء أيضاً مع عابديهم فى النار ؟

لو قُلْنا بهذا الرأى فدخولهم النار مثلما دخلها إبراهيم ، فجمع الله له النار والسلامة فى وقت واحد ، ويكون وجودهم لمجرد أنْ يراهم

(١) قُرِىءَ هذا اللفظ فى القرآن ثلاث قراءات :
١ - حصب جهنم : قراءة الجمهور .
٢ - حطب جهنم : قراءة على بن أبى طالب وعائشة .
٣ - حضب جهنم : قراءة ابن عباس . [تفسير القرطبى ٦/ ٤٥٢٤] .

عابدوهم ، ويعلموا أنهم لا ينفعونهم[1] .

ومعنى ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ .. (٩٨)﴾ [الأنبياء] الحصب مثل : الحطب ، وهو كل ما تُوقَد به النار أياً كان خشباً أو قَشّاً أو بترولاً أو كهرباء ، وفي آية أخرى : ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٦)﴾ [التحريم] لذلك فإن النار نفسها تشتاق للكفار ، وتنتظرهم ، وتتلهّف عليهم كما يقول تعالى : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق]

ويقول تعالى : ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ .. (٨)﴾ [الملك]

وقوله تعالى : ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)﴾ [الأنبياء] الورود هنا بمعنى : الدخول والمباشرة ، لا كالورود[2] في الآية الأخرى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١)﴾ [مريم]

---

(١) عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)﴾ [الأنبياء] . فقال ابن الزبعرى : ألست تزعم يا محمد أن عيسى عبد صالح ، وأن عزيراً عبد صالح ، وأن الملائكة صالحون ؟ قال : بلى . قال : فهذه النصارى تعبد عيسى ، وهذه اليهود تعبد عزيراً ، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة ، فضج أهل مكة وفرحوا ، فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١)﴾ [الأنبياء] عزير وعيسى والملائكة . أخرجه أبو داود في ناسخه وابن المنذر وابن مردويه والطبراني ، قاله السيوطي في الدر المنثور (٥/٦٧٩) .

(٢) اختلف العلماء في معنى الورود في قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. (٧١)﴾ [مريم] على أقوال عدة منها :
- الورود : الدخول ، قاله ابن عباس وخالد بن معدان وابن جريج وغيرهما .
- هو ورود إشراف واطلاع وقرب ، وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم ، فيرونها وينظرون إليها في حالة الحساب ثم ينجي الله الذين اتقوا مما نظروا إليه ، ويُصار بهم إلى الجنة .
- الورود : النظر إليها في القبر ، فينجي منها الفائز ، ويصلاها مَنْ قُدِّر عليه دخولها ، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله . قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٣١٠) بعد إيراد هذه الأقوال : « ظاهر الورود الدخول إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين ، وينجون منها سالمين » . ثم قال : « هذا القول يجمع شتات الأقوال ، فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها فقد أبعد عنها ونجي منها » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

لأنهم سيدخلون فيجدون آلهتهم أمامهم ؛ لينْقطع أملهم في شفاعتهم التي يظنونها ، كما قال تعالى في شأن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود] فرئيسهم وفُتوتهم يتقدمهم ، ويسبقهم إلى النار ، فلو لم يكُنْ أمامهم لظنوا أنه ينقذهم من هذا المأزق . ولو كان هؤلاء آلهة ـ كما تدَّعون ـ ما وردوا النار .

ومعنى : ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنبياء] لأن المعروف عن النار أنها تأكل ما فيها ، ثم تنتهي ، أما هذه النار فلا نهايةَ لها ، فكلما نضجَتْ جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، وهكذا تظل النار مُتوقِّدة لا تنطفىء . ومعنى ﴿ كُلٌّ .. ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنبياء] أي : العابد والمعبود .

﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

معلوم أن الزفير هو الخارج من عملية التنفس ، فالإنسان يأخذ في الشهيق الأكسجين ، ويُخرج في الزفير ثاني أكسيد الكربون ، فنلحظ أن التعبير هنا اقتصر على الزفير دون الشهيق ؛ لأن الزفير هو الهواء الساخن الخارج ، وليس في النار هواء للشهيق ، فكأنه لا شهيقَ لهم ، أعاذنا الله من العذاب .

﴿ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأنبياء]

وهذه من الآيات التي توقف عندها المستشرقون ، لأن هناك آيات أخرى تُثبت لهم في النار سَمْعاً وكلاماً . كما في قوله سبحانه :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ [الأعراف]

نعم ، هم يسمعون ، لكن لا يسمعون كلاماً يَسُرُّ ، إنما يسمعون تبكيتاً وتأنيباً ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) ﴾ [الأعراف]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) ﴾

بعد أن ذكر سبحانه جزاء الكافرين في النار ذكر المقابل ، وذِكْر المقابل يوضح المعنى ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

ويقول : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. (٨٢) ﴾ [التوبة] ؛ لذلك تظل المقارنة حيَّة في الذِّهْن .

ومعنى : ﴿ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ .. (١٠١) ﴾ [الأنبياء] الحُسْنى : مؤنث الأحسن ، تقول : هذا حَسَن وهذه حسنة ، فإنْ أردتَ المبالغة تقول : هذا أحسن ، وهذه حُسْنى . مثل : أكبر وكُبْرى . ومعنى : ﴿ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ .. (١٠١) ﴾ [الأنبياء] أنهم من أهل الطاعة ، ومن أهل الجنة ، فهكذا حُكْم الله لهم ، وقد أخذ الله تعالى جزءاً من خَلْقه

وقال : « هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء للنار ولا أبالى »[1] .

ولا تقُلْ : ما ذنب هؤلاء ؟ لأنه سبحانه حكم بسابق علْمه بطاعة هؤلاء ، ومعصية هؤلاء .

وقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ[2] عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : مبعدون عن النار .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

حسيس النار : أزيزها ، وما ينبعث منها من أصوات أول ما تشتعل ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنبياء] فلم يقُلْ مثلاً : وهم بما اشتهتْ أنفسهم ، إنما ﴿فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ .. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأنبياء] كأنهم غارقون فى النعيم ممَّا اشتهتْ أنفسهم ، كأن شهوات أنفسهم ظرف يحتويهم ويشملهم . وهذا يُشوِّق أهل الخير والصلاح للجنة ونعيمها ، حتى نعمل لها ، ونُعد العُدَّة لهذا النعيم .

وسبق أن قلنا : إن الإنسان يتعب فى أول حياته ، ويتعلم صنعة ، أو يأخذ شهادة لينتفع بها فيما بعد ويرتاح فى مستقبل حياته ، وعلى قَدْر تعبك ومجهودك تكون راحتك ، فكل ثمرة لا بُدَّ لها

(١) عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم فقال للذى فى يمينه : إلى الجنة ولا أبالى . وقال للذى فى كفه اليسرى : إلى النار ولا أبالى » أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٤٤١) .

(٢) قال ابن عباس : أولئك أولياء الله يمرون على الصراط مراً ، هو أسرع من البرق ، ويبقى الكفار فيها جثياً وقال آخرون : بل نزلت استثناء من المعبودين وخرج منهم عزير والمسيح كما قال حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/١٩٨) .

من حَرْث ومجهود ، والله عز وجل لا يُضيع أجرَ مَنْ أحسن عملاً .

وكنا نرى بعض الفلاحين يقضى يومه فى حقله ، مهملَ الثياب ، رثَّ الهيئة ، لا يشغله إلا العمل فى زرعه ، وآخر تراه مُهندماً نظيفاً يجلس على المقهى سعيداً بهذه الراحة ، وربما يتندر على صاحبه الذى يُشقى نفسه فى العمل ، حتى إذا ما جاء وقت الحصاد وجد العامل ثمرة تعبه ، ولم يجد الكسول غير الحسرة والندم .

إذن : ربك ـ عز وجل ـ أعطاك الطاقة والجوارح ، ويريد منك الحركة ، وفى الحركة بركة ، فلو أن الفلاح جلس يُقلِّب فى أرضه ويُثير تربتها دونْ أنْ يزرعها لَعوَّضه الله وأثمر تعبه ، ولو أن يجد شيئاً فى الأرض ينتفع به مثل خاتم ذهب أو غيره .

وترف الإنسان وراحته بحسب تَعبه فى بداية حياته ، فالذى يتعب ويعرق مثلاً عَشْر سنين يرتاح طوال عمره ، فإنْ تعب عشرين سنة يرتاح ويرتاح أولاده من بعده ، وإنْ تعب ثلاثين سنة يرتاح أحفاده وهكذا .

وترَف المتعلم يكون بحسب شهادته : فهذا شهادة متوسطة ، وهذا عُلْيا ، وهذا أخذ الدكتوراة ، ليكون له مركز ومكانة فى مجتمعه .

لكن مهما أعدَّ الإنسان لنفسه من نعيم الحياة وترفها فإنه نعيم بقَدْر إمكانياته وطاقاته ؛ لذلك ذكرنا أننا حين سافرنا إلى سان فرانسيسكو رأينا أحد الفنادق الفخمة وقالوا : إن الملك فيصل ـ رحمه الله ـ كان ينزل فيه ، فأردنا أنْ نتجوّل فيه ، وفعلاً أخذنا بما فيه من مظاهر الترف والأُبهة وروعة الهندسة ، وكان معى ناس من علْية القوم فقلتُ لهم : هذا ما أعدّه العباد للعباد ، فما بالكم بما أعدَّه رب العباد للعباد ؟

فإذا ما رأيتَ أهل النعيم والترف فى الدنيـا فلا تحقد عليهم ؛ لأن نعيمهم يُذكِّرك ويُشوِّقك لنعيم الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ[1] هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

ذلك لأنهم فـى نعـيم دائم لا ينقـطع ، وعطاء غـيـر مـجـذوذ ، لا يفوتك بالفقر ولا تفوته بالموت ؛ لذلك ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء] وأىُّ فزع مع هذه النعمة الباقية ؟ أو : لا يحزنهم فزع القيامة وأهوالها .

وقوله : ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء] فقـد صدَقكم الله وَعْده ، وأنجـزَ لكم ما وعدكـم به من نعيم الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

أى : ما يحـدث من عذاب الكفـار وتنعيم المؤمنـين سيكون ﴿يَوْمَ

(١) قال مجـاهد : تتلقاهم الملائكة الذين كانوا قـرناءهم فى الدنيا يوم القيامة فـيقولون : نحن أوليـاؤكم فى الحـيـاة الدنيا وفى الآخـرة ، لا نفـارقكم حـتى تدخلوا الجنة . أخـرجـه ابن أبى حاتم وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٨٣) .

نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ .. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء] و (يَوم) : زمن وظَرْف للأحداث ، فكأن ما يحدث للكافرين من العذاب والتنكيل ، وما يحدث للمؤمنين من الخلود فى النعيم يتم فى هذا اليوم .

والسجل : هو القرطاس ، والورق الذى نكتب فيه يُسمَّى سجلاً ؛ ولذلك الناس يقولون : نسجل كذا ، أى : نكتبه فى ورقة حتى يكون محفوظاً ، والكتاب : هو المكتوب .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿وَالسَّمَـٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ.. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] يطويها بقدرته ؛ لأن اليمين عندنا هى الفاعلة فى الأشياء ، ولكن لا نأخذ الطى أنه الطى المعروف ، بل نأخذه فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

وقوله تعالى : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ .. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء] يدلنا على أن الحق سبحانه يتكلم عن الخَلْق الأول و ﴿نُّعِيدُهُ.. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء] تدل على وجود خَلْق ثان .

إذن : فقوله تعالى فى موضع آخر : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ[1] الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم] دليل علىَ أن الخَلْق الأول خَلْق فيه الأسباب وفيه المسبِّب ، فالحق سبحانه أعطاك فى الدنيا مُقوِّمات الحياة من : الشمس والقمر والمطر والأرض والماء .... الخ ، وهذه أمور لا دَخْل لك فيها ، وكل ما عليك أنْ تستخدمَ عقلك الذى خلقه الله فى الترقى بهذه الأشياء والترف بها .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٢١) : « رُوى مرفوعاً من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « تُبدَّل الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظى ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، ثم يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم فى الثانية فى مثل مواضعهم من الأولى ، مَنْ كان فى بطنها ففى بطنها ، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها » ذكره الغزنوى .

أما فى الخلق الثانى فـأنت فقط تستقـبل النعيم من الله دون أَخْذ بالأسباب التى تعـرفها فى الدنيا ؛ لأن الآخرة لا تقوم بالأسـباب إنما بالمسـبِّب سبحـانه ، وحين ترى فى الجنة مـا لا عين رأت ، ولا أذن سـمـعتْ ، ولا خطر على قلب بشـر تعـلم أن فِعْـل ربك لك أعظم من فِعْلك لنفسك .

ومهـما ارتقتْ أسبـاب الترف فى الدنيـا ، ومهمـا تفنَّن الخَلْق فى أسباب الراحة والخـدمة الراقية ، فقصـارى ما عندهم أن تضغط على زِرٍّ يفـتح لك الباب ، أو يُحـضر لك الـطعام أو القـهوة ، لكن أتحـدَّى العَالم بما لديـه من تقدُّم وتكنولوجيا أنْ يُقدم لى مـا يخطر ببالى من طعام أو شراب ، فأراه أمامى دون أنْ أتكلم ؛ لأن هذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله عز وجل .

فقوله : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ .. ١٠٤﴾ [الأنبياء] فالمعنى ليستْ مجرد إعادته كما كان ، إنمـا نعيده على أَرْقى وأفضل مما كان بحيث يصل بك النعـيم أنْ يخطرَ الشىء ببالك فتـجده بين يديك ، بل إنَّ المؤمن فى الجنة يتناول الصنف من الفاكهة فيقول : لقد أكلتُ مثل هذا من قبل[1] فيُقـال له : ليس كذلك بل هو أفضل مـما أكلْتَ ، وأهنأ مما تذوقتَ . فلو تناولتَ مـثلاً تفاح الدنيا تراه خاضعاً لـنوعية التُّرْبة والماء والجـو المحيط به والمبـيدات التى لا يستـغنى عنها الزرع هذه الأيام ... إلخ . أمّـا تفاح الآخـرة فهـو شىء آخر تمـاماً ، إنه صَنْعـة ربانية وإعداد إلهىّ .

وكأن الحـق سبحـانه يلفت عبـاده إلى أن عنايته بهم أفـضل من

(١) هذا قوله تعالى : ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. ٢٥﴾ [البقرة] .

عنايتهم بأنفسهم ؛ لأنه سبحانه أَوْلَى بنا من أنفسنا ، ولكى نعلم الفرق بين الشىء فى أيدينا والشىء فى يده عز وجل .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) ﴾ [الأنبياء] أى : لا يُخرجنا شىء عمَّا وعدنا به ، ولا يخالفنا أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ[1] مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) ﴾

والكَتْب : التسجيل ، لكن علم الله أزلىٌّ لا يحتاج إلى تسجيل ، إنما التسجيل من أجلنا نحن حتى نطمئن ، كما لو أخذتَ من صاحبك قَرْضاً وبينكما ثقة ، ويأمن بعضكم بعضاً ، لكن مع هذا نكتب القَرْض ونُسجِّله حتى تطمئن النفس .

ومعنى : ﴿ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ .. (١٠٥) ﴾ [الأنبياء] الزبور : الكتاب الذى أُنزل على نبى الله داود ، ومعنى الزبور : الشىء المكتوب ، فإنْ أطلقتَها على عمومها تُطلَق على كل كتاب أنزله الله ، ومعنى : ﴿ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ .. (١٠٥) ﴾ [الأنبياء] الذكْر : يُطلَق مرة على القرآن ، ومرة على الكتب السابقة . وما دام الزَبور يُطلَق على كل كتاب أنزله الله فلا بُدَّ أن للذكر معنى أوسع ؛ لذلك يُطلَق الذكر على اللوح المحفوظ ، لأنه ذكْر الذكْر ، وفيه كل شىء .

فمعنى : ﴿ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ .. (١٠٥) ﴾ [الأنبياء] أى : فى الكتب التى

---

(١) الزبور والكتاب واحد ، ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبور . وقال سعيد بن جبير : الزبور : التوراة والإنجيل والقرآن . (تفسير القرطبى ٦/٤٥٢٩) .

أُنزلَتْ على الأنبياء ما كتبناه فى اللوح المحفوظ ، أو ما كتبناه فى الزبور ، لا أنّ سيدنا داود أعطاه الله فوق ما أعطى الآخرين .

ومعنى : ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] هذه تدل على أن واحداً أسبق من الآخر ، نقول : القرآن هو كلام الله القديم ، ليس فى الكتب السماوية أقدم منه ، والمراد هنا ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] بعدية ذِكْرية ، لا بعدية زمنية .

فما الذى كتبه الله لداود فى الزبور ؟ كتب له ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)﴾ [الأنبياء] كلمة الأرض إذا أُطلقَتْ عموماً يُراد بها الكرة الأرضية كلها .

وقد تُقيَّد بوصف معين كما فى : ﴿الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ..(٢١)﴾ [المائدة]

وفى : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ .. (٨٠)﴾ [يوسف] أى : التى كان بها .

وهنا يقول تعالى : ﴿أَنَّ الأَرْضَ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] أى : الأرض عموماً ﴿يَرِثُهَا .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] أى : تكون حقاً رسمياً لعبادى الصالحين . فأىُّ أرض هذه ؟ أهى الأرض التى نحن عليها الآن ؟ أم الأرض المبدلة ؟

ما دُمْنَا نتكلّم عن بَدْء الخَلْق وإعادته ، فيكون المراد الأرض المبدلَة المعادة فى الآخرة[1] ، والتى يرثها عباد الله الصالحون ، والإرْث هنا كما فى قوله تعالى : ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [الأعراف]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٣٠) : « أحسن ما قيل فيه أنه يُراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير ؛ لأن الأرض فى الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم . وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما » .

فعن مَنْ ورثوا هذه الأرض ؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الخَلْق أعدَّ الجنة لتسعَ كلَّ بنى آدم إنْ آمنوا ، وأعدَّ النار لتسع كُلَّ بنى آدم إنْ كفروا ، فليس فى المسألة زحام على أىِّ حال . فإذا ما دخل أهلُ الجنة الجنةَ ، ودخل أهلُ النار النارَ ظلَّتْ أماكن أهل النار فى الجنة خالية فيُورثها الله لأهل الجنة ويُقسِّمها بينهم ، ويُفسح لهم أماكنهم التى حُرِم منها أهل الكفر .

أو نقول : الأرض يُراد بها أرض الدنيا[1] . ويكون المعنى أن الله يُمكِّن الصالح من الأرض ، الصالح الذى يَعْمُرها ولو كان كافراً ؛ لأن الله تعالى لا يحرم الإنسان ثمار عمله ، حتى وإنْ كان كافراً ، يقول تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

لكن عمارة الكفار للأرض وتكوينهم للحضارة سَرْعان ما تنزل بهم النكبات ، وتنقلب عليهم حضارتهم ، وها نحن نرى نكبات الأمم المرتقية والمتقدمة وما تعانيه من أمراض اجتماعية مستعصية ، فليست عمارة الأرض اقتصاداً وطعاماً وشراباً وترفاً . ففى السويد - مثلاً - وهى من أعلى دول العالم دَخْلاً ومع ذلك بها أعلى نسبة انتحار ، وأعلى نسبة شذوذ ، وهذه هى المعيشة الضَّنْك التى تحدَّث عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [طه]

فالضَّنْك لا يعنى فقط الفقر والحاجة ، إنما له صور أخرى كثيرة .

(١) عن ابن عباس : إنها أرض الأمم الكافرة ، ترثها أمة محمد ﷺ بالفتوح [تفسير القرطبى ٦ / ٤٥٣٠] .

إذن : لا تَقِسْ مستوى التحضُّر بالماديات فحسب ، إنما خُذْ فى حُسْبانك كُلَّ النواحى الأخرى ، فمَنْ أتقن النواحى المادية الدنيوية أخذها وترف بها فى الدنيا ، أمّا الصلاح الدينى والخُلقى والقيَمى فهو سبيل لترف الدنيا ونعيم الآخرة .

وهكذا تشمل الآية : ﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء] الصلاح المادى الدنيوى ، والصلاح المعنوى الأخروى ، فإنْ أخذتَ الصلاح مُطلقاً بلا إيمان ، فإنك ستجد ثمرته إلى حين ، ثم ينقلب عليك ، فأين أصحاب الحضارات القديمة من عاد وثمود والفراعنة ؟

إن كُلَّ هذه الحضارات مع ما وصلتْ إليه ما أمكنها أن تحتفظ لنفسها بالدوام ، فزالتْ وبادتْ .

يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ [الفجر]

إنها حضارات راقية دُفنَتْ تحت أطباق التراب ، لا نعرف حتى أماكنها . أمّا إنْ أخذت الصلاح المعنوى ، الصلاح المنهجى من الله عز وجل فسوف تحوز به الدنيا والآخرة ؛ ذلك لأن حركة الحياة تحتاج إلى منهج يُنظِّمها : افعل كذا ولا تفعل كذا . وهذا لا يقوم به البشر أمّا ربُّ البشر فهو الذى يعلم ما يُصلحهم ويُشرِّع لهم ما يُسعدهم .

إن منهج الله وحده هو الذى يأمرنا وينهانا ، ويخبرنا بالحلال والحرام ، وعلينا نحن التنفيذ ، وعلى الحكام وأولياء الأمر الممسكين بميزان العدل أنْ يراقبوا مسألة التنفيذ هذه ، فيُولُّوا مَنْ يصلُح للمهمة ، ويقوم بها على أكمل وجه ، وإلا فسد حال المجتمع ، الحاكم

يُشرف ويُراقب ، يُشجِّع العامل ويُعاقب الخامل ، ويضع الرجل المناسب فى مكانه المناسب .

فعناصر الصلاح فى المجتمع : علماء يُخططون ، وحكام يُنفّذون ، ويديرون الأمور ، وكلمة حاكم مأخوذة من الحكَمة (بالفتح) وهى : اللجام الذى يكبح الفَرس ويُوجِّهها .

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « مَنْ ولَّى أحداً على جماعة ، وفى الناس خير منه لا يشم رائحة الجنة »[1] .

لماذا ؟ لأن ذلك يُشيع الفساد فى الأرض ، ويُثبِّط العزائم العالية والهمم القوية حين ترى مَنْ هو أقلّ منك كفاءة يتولّى الأمر ، وتُستبعد أنت . أما حين تعتدل كِفّة الميزان فسوف يجتهد كُلٌّ منّا ليصل إلى مكانه المناسب .

إذن : مهمة الحكام وولاة الأمر ترقية المجتمع ، فلا نقول لحاكم مثلاً يُعدٌّ لنا طعاماً ، أو يصنع لنا آلة ، فليستْ هذه مهمته ، ولقد رأينا أحد الأمراء وكان له أرض يزرعها ، يتولاها أحد الموظفين يقولون له (الخُولى) ومهمة الخولى الإشراف والمراقبة .

وفى يوم جاء الأمير ليباشر أرضه ويتفقد أحوالها فى صُحْبة الخولى ، وفى أثناء جولتهما بالأرض رأى الخولى قناةً ينسابُ منها الماء حتى أغرق الزرع فنزل وسَدَّ القناة بنفسه .

وعندها غضب الأمير وفصله من عمله ؛ لأنه عمل بيده فى حين أن مهمته الإشراف ولديه من العمال مَنْ يقوم بمثل هذا العمل .

---

(١) عن أبى بكر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً فأمَّر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم » أخرجه أحمد فى مسنده (٦/١) .

لكن ، لماذا هذه النظرة فى إدارة الأعمال ؟ قالوا : لأنك إنْ عملتَ بيدك فأنت واحد ، لكن إنْ أشرفتَ فيمكن أنْ تُشرف على آلاف من العمال . ومن هنا جاءت مسألة التخصُّص فى الأعمال .

وعلى الحاكم وولىِّ الأمر أنْ يحافظ على منهج الله ، ويتابع تطبيق الناس له ، فيقف أمام أى فساد ، ويأخذ على يد صاحبه ، ويثيب المجتهد العامل ، كما جاء فى قوله تعالى فى قصة ذى القرنين :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ﴾ [الكهف]

ذلك ، لأن الله تعالى يزَعُ بالسلطان مَا لا يزع بالقرآن ، ولو تركنا أهل الفساد والمنحرفين لجزاء القيامة لفسد المجتمع ، لا بُدَّ من قوة تصون صلاح المجتمع ، وتضرب على أيدى المفسدين ، لا بُدَّ من قوة تمنع مَنْ يتجرؤون علينا ويطالبون بتغيير نظامنا الإسلامى .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .. (٦٠) ﴾ [الأنفال] لا بُدَّ أن يعلم العدو أن لديك الرادعَ الذى يَردعه إنِ اعتدى عليك أو حاول إفساد صلاح المجتمع .

لذلك ، فالنبى ﷺ يقول فى الحديث[1] إن السهم الذى يُرمى فى سبيل الله ، لكل مَنْ شارك فى إعداده ورميه جزء من الثواب ، فالذى قطعه من الشجرة والذى براه ، والذى وضعه فى القوس ورمى به ؛ لأن فى ذلك صيانةً للحق وصيانة للصلاح حتى يدوم ، ولا يفسده أحد .

---

(١) عن عقبة بن عامر قال قال ﷺ : « إن الله عز وجل يُدخل الثلاثة بالسهم الواحد الجنة : صانعه يحتسب فى صنعه الخير ، والممد به ، والرامى به » أخرجه الدارمى فى سننه (٢/٢٠٤) والترمذى فى سننه (١٦٣٧) ، وابن ماجه فى سننه (٢٨١١) .

والمسئولية هنا لا تقتصر على الحكام وولاة الأمر ، إنما هى مسئولية كل فرد فيمن ولى أمراً من أمور المسلمين ، كما جاء فى الحديث : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته : فالأمير الذى على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بَعْلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته »[1] .

وعلى العامل ألاَّ ينظرَ إلى مراقبة صاحب العمل ، وليكُنْ هو رقيباً على نفسه ، والله عز وجل يراقب الجميع ، وقد جاء فى الحديث القدسى « إن كنتم تعتقدون أنِّى لا أراكم فالخَلل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنِّى أراكم فلِمَ جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم ؟ » .

والمتأمل فى حركة الحياة يجدها متداخلة ، فمثلاً لو أردتَ بناء بيت ، فالهندسة حركة ، والبناء حركة ، والكهرباء حركة ، والنجارة حركة ، وهكذا .. ، فلو قلنا : إن هذا العمل يتكون من مائة حركة مثلاً ، فإنك لا تملك منها إلا حركة واحدة هى عملك الذى تتقنه ، والباقى حركات لغيرك ، فإنْ أخلصتَ فيما للناس عندك ألهمهم الله أنْ يخلصوا لك ولو عن غير قصد ، فأنت أخلصتَ وأتقنتَ حركة واحدة ، وأخلص الناس لك فى تسع وتسعين حركة .

واعلم أن الخواطر والأفكار بيد الله سبحانه ، فإنْ راقبتَ الله فيما للناس عندك راقبهم الله لك فيما لك عندهم ، وكفاك مُؤْنة المراقبة ، فقد يصنع لك الصانع شيئاً ، ويريد أنْ يغشَّك فيه فيحول الله بينه وبين

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، وأحمد فى مسنده (٢/٥٤ ، ١١١) ، والبخارى فى صحيحه (٢٤٠٩) .

هذا ؛ ربما يجلس معه أحد معارفه فيستحى أن يغش أمامه ، أو لا يجد الشىء الذى يغشك به ، أو غير ذلك من الأسباب التى يُسخِّرها الله لك ، فيتقن لك الصانع صَنْعته ، ولو رَغْماً عن إرادته .

إذن : إن أردتَ صلاحَ أمرك فأصلح أمور الآخرين .

ومن الأساسيات التى نُصلح بها ونرث الأرض أن ننظر إلى الناس جميعاً على أنهم سواسية ، لا فضلَ لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، فليس فينا مَنْ هو ابن لله عز وجل ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله قرابة ، قال تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. (١٣)﴾ [الحجرات]

والإسلام لا يعرف الطبقية إلا فى إتقان العمل ، فقيمة كل امرىء ما يُحسنه ، وقد ضربنا لذلك مثلاً ، وما نزال نذكره مع أنه لرجل غير مسلم ، إنه رجل فرنسى كان نقيباً للعمال ، وكان يدافع عن حقوقهم ، ويطلب لهم زيادة الدَّخْل من ميزانية الوزارة ، فلما تولى منصب الوزارة وتولى المسئولية عدلَ عَمَّا كان يطالب به ، فضجَّ العمال ، وأراد أحدهم أنْ يغيظه فقال له : اذكر يا معالى الوزير أنك كنت فى يوم من الأيام ماسح أحذية ، فما كان من الرجل إلا أن قال : نعم .. لكنى كنت أجيدها .

وسبق أن ذكرنا أن الله تعالى وزَّعَ المواهب والقدرات بين خَلْقه ، فساعة ترى نفسك مُميزاً على غيرك فى شىء فلا تغتر به ، وابحثْ فيما مُيِّز به عنك غيرُك ؛ لأننا جميعاً عند الله سواء ، لا يحابى منا أحداً على أحد ، فأنت مُميز بعلمك أو قوتك ، وغيرك أيضاً مُميز فى سعادته مع أهله أو فى أمانته وثقة الناس به ، أو فى رضاه بما قسم له أو فى مقدرته على نفسه ورضاه بالقليل ، وقد يُميَّز الواحد منَّا بالولد الصالح الذى يكون مِطْواعاً لأبيه ، وقُرة عَيْن له .

إذن : هذه مسألة مُقدَّرة محسوبة ؛ لأن ربك سبحانه قيُّوم عليك ، لا تخفى عليه منك خافية ، وحين يُميِّز بعضنا على بعض إنما ليدكّ فينا الغرور والكبرياء ، وينزع من قلوبنا الحقْد والغلّ ، وهكذا يتوازن المجتمع، ولا يكون التميز مثار حقد ؛ لأنَ تميزَ غيرك لصالحك ، وسيعود عليك .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُحدِّثنا عن يوم القيامة ، وكيف أن الشمس ستدنو من الرؤوس ، ويشتدّ بالناس الكرب ، إلا هؤلاء الذين يُظلُّهم الله فى ظلِّه يوم لا ظل إلا ظله ، ذلك لأنهم كانوا مظلة أمان فى الدنيا ، فأظلَهم الله فى الآخرة .

كما جاء فى الحديث الشريف : « سبعة يُظلهم الله فى ظلِّه يوم لا ظلّ إلا ظلُّه : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه مُعلَّق فى المَساجد ، ورجلان تحابَّا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه »[1] .

نعم ، لقد صنع هؤلاء بسلوكهم القويم مظلَّة أمانٍ فى الكون ، فاستحقوا مظلَّة الله فى الآخرة . وبمثل هؤلاء يتوازن المجتمع المسلم ويَرْقَى إلى القمة ، هذا المجتمع الذى نريده هو مجتمع غنيّه متواضع ، وفقيره كريم شريف ، وشابُّه طائع .

يقول رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى : « أحب ثلاثة وحُبِّى لثلاثة أشدُّ ـ فهؤلاء ستة نقسمهم إلى قسمين ـ أحب الفقير

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٦٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

المتواضع ، وحُبِّى للغنى المتواضع أشد - لأن عنده أسبابَ الكبر ومع ذلك يتواضع - وأحب الغنىَّ الكريم وحُبِّى للفقير الكريم أشدّ ، وأحب الشيخ الطائع وحبى للشاب الطائع أشدُّ » .

« وأكره ثلاثة وكُرْهى لثلاثة أشد : أكره الغنى المتكبر ، وكُرْهى للفقير المتكبر أشدّ ، وأكره الفقير البخيل ، وكُرْهى للغنى البخيل أشد ، وأكره الشاب العاصى وكرهى للشيخ العاصى أشد » .

هؤلاء اثنا عشر نوعاً : ستة فى المحبوبية ، وستة فى المكروهية ، وكلما التزمنا بتطبيق هذا المنهج وجدنا مجتمعاً راقياً من الدرجة الأولى .

﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

البلاغ : الشىء المهم الذى يجب أن يعلمه الناس ؛ لذلك حين ينشغل الناس بالحرب ، وينتظرون أخبارها تأتيهم على صورة بلاغات ، يقولون : بلاغ رقم واحد ، لأنه أمر مهم .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا .. ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : أن ما جاء به القرآن هو البلاغ الحق ، والبلاغ الأعلى الذى لم يترك لكم عذراً ، ولا لغفلتكم مجالاً ، ولا لمستدرك أنْ يستدرك عليه فى شىء . فهو مُنْتهى ما يمكن أنْ أخبركم به .

وهو بلاغ لمن ؟ ﴿ لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : يتلقفون مُرادَ الله لينفذوه ، سواء أكان أمراً أمْ نَهياً .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

وما دام ﷺ خاتَم الرسل ، وبعثتُه للناس كافة ، وللزمن كله إلى أنْ تقوم الساعة . وقد جاء الرسل السابقون عليه لفترة زمنية

محددة ، ولقوم بعينهم ، أما رسالة محمد ﷺ فجاءتْ رحمةً للعالمين جميعاً ؛ لذلك لا بُدَّ لها أنْ تتسعَ لكل أقضية الحياة التى تعاصرها أنت ، والتى يعاصرها خَلَفُك ، وإلى يوم القيامة .

ومعنى : العالمين ، كُلٌّ ما سوى الله عز وجل : عالم الملائكة ، وعالم الجن ، وعالم الإنس ، وعالم الجماد ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات . لكن كيف تكون رسالة محمد ﷺ رحمةً لهم جميعاً ؟

قالوا : نعم ، رحمة للملائكة ، فجبريل - عليه السلام - كان يخشى العاقبة حتى نزل على محمد قوله تعالى : ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠)﴾ [التكوير] فاطمأن جبريل عليه السلام وأمن .

ورسول الله ﷺ رحمة للجماد ؛ لأنه أمرنا بإماطة الأذى عن الطريق . وهو رحمة بالحيوان . وفى الحديث الشريف : « ما من مسلم يزرع زَرْعاً ، أو يغرس غَرْساً فيأكلَ منه طيْرٌ أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة »[1] .

وحديث المرأة التى دخلتْ النار فى هرَّة حبستْها ، فلا هى أطعمتْها وسقتْها ، ولا هى تركتها تأكل من خَشَاش الأرض[2] .

وحديث الرجل الذى دخل الجنة ؛ لأنه سقى كلباً كان يلهث يأكل الثرى من شدة العطش ، فنزل الرجل البئر وملأ خُفَّه فسقى الكلب ، فشكر الله له وغفر له ، لأنه نزل البئر وليس معه إناء يملأ به الماء ،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٢٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٥٣) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) عن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣/٨) قال ابنُ حجر فى الفتح (٣٥٧/٦) : « المراد (بخشاش الأرض) هوام الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها » .

فاحتال للأمر ، واجتهد ليسقى الكلب[1] .

وهكذا نالتْ رحمة الإسلام الحيوان والطير والإنسان ، ففى الدين مبدأ ومنهج يُنظِّم كل شىء ولا يترك صغيرة ولا كبيرة فى حياة الناس ؛ لذلك فهو رحمة للعالمين .

فقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء] يعنى أن كل ما يجىء به الإسلام داخل فى عناصر الرحمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

فالوحدانية هى أول رحمة بنا ، أن نكون كلنا سواء ، ليس لنا إلا إله واحد ، هذه من أعظم رحمات الله أن نعبده وحده لا شريكَ له ، فعبادته تُغنينا عن عبادة غيره ، ولو كانت آلهةٌ متعددة لأصابتنا الحيرة بين إله يأمر ، وإله ينهى .

لذلك ؛ فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يطلب منا أنْ نعتزّ وأنْ نفخَر بهذه الوحدانية ، وبهذه الألوهية ، وفى هذا يقول الشاعر الإسلامى محمد إقبال :

والسُّجود الذى تَجْتويه ... مِنْ أُلوف السُّجود فيه نَجَاةُ

(١) عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل بها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) .

فســجودك لله وتعـفيـر وجهك له ســبحــانه يحمـيك من الســجود لغيره ، ولولا ســجودك لله لَسجدت لكل مَنْ هو أقـوى منك ، فعليك - إذن - أن تعتـز بعبوديتك لله ؛ لأنهـا تحميـك من العبودية لغـيرك من البشر ، وحـتى لا يقول لك شخص أنت عبد ، نعـم أنا عبد لكن لستُ عبداً لك ، فعبد غيرك حُرٌّ مثلك .

وقـد ضرب لنا الحق سـبحـانه مـثلاً في هذه المـسألة في قـوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩) ﴾ [الزمر]

فهل يستوى عبد لعدة أسياد يتجاذبونه فى وقت واحد ، وهم مع ذلك مختلفون بعضـهم مع بعض ، وعبد سلَماً لسيد واحد ؟

وهكذا ، نحن جميعاً عبيد لله - عز وجل - حين نخضـع لا نخضـع إلا له ســبحــانه ، فلا أخـضـع لك ولا تخضع أنت لى ؛ لذلك يقـولون « اللى الشــرع يقطع صبــاعه ميـخرش دم » لأنه أمــر من أعلى ، من السماء ، لا دَخْلَ لأحد فيه .

لذلك ؛ فالعـبودية تُكره حـين تكون عبوديةً لـلبشر ، لأن عـبودية البشر للبشر يأخذ السيد خير عبده ، أما العبودية لله فيأخذ العبد خير سيده .

والشـاعر[1] يقول :

حَسْبُ نفسى عزاً بأنّى عَبْدٌ ... يحتـفى بى بـلاَ مواعيدَ رَبُّ
هُوَ فى قُدْســه الأعزِّ ولكنْ ... أنـا ألْقَى مـتى وأيْـنَ أُحِــبُّ

ولك أنْ تقارن بين مـقابلة عظيم من عظماء الدنيا ، ومـقابلة ربك عز وجل . فإنْ أردتَ الدخولَ على أحد هؤلاء لا بُدَّ أن تطلب المقابلة ،

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

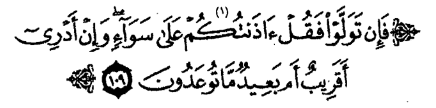
ويا ترى تقبل أم ترفض ، وإنْ قبلت فلا تملك من عناصرها شيئاً ، فالزمان ، والمكان ، وموضوع الكلام . كلها أمور يحددها غيرك .

أما إن أردتَ مقابلة ربك ـ عز وجل ـ فما عليك إلا أنْ تتوضأ وترفع يديك قائلاً : الله أكبر بعدها ستكون فى معية الله ، وقد اخترتَ أنت الزمان ، والمكان ، وموضوع الحديث ، وإنهاء اللقاء .

ألاَ ترى كيف امتنَّ الله تعالى على رسوله فى رحلة « الإسراء والمعراج » بأنْ وصفه بالعبودية له سبحانه ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِه .. (١) ﴾ [الإسراء] إذن : جاء قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (١٠٨) ﴾ [الأنبياء] بعد قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء] ليدلنا : أن دعوة الله لنا إلى عبادة إله واحد ترحمنا من عبوديتنا بعضنا لبعض .

ثم يُرغِّبنا الحق سبحانه فى هذه العبودية ، فيقول : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) ﴾ [الأنبياء] كما تحث ولدك المتكاسل أن يكون مثلَ زميله الذى تفوَّق ، وأخذ المركز الأول ، فتقول له : ألاَ تذاكر وتجتهد حتى تكون مثله ؟

وهكذا فى ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) ﴾ [الأنبياء] أى : مسلمون لله ؛ لأن مصلحتكم فى الإسلام وعزّكم فى عبوديتكم لله .


﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ[1] عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) ﴾

(١) آذنه الأمر ، وآذنه به : أعلمه ، وآذنتك بالشيء : أعلمتكه . [لسان العرب ـ مادة : أذن] .

﴿فَإِن تَوَلَّوْا .. (١٠٩)﴾ [الأنبياء] يعنى : أعرضـوا وانصرفوا ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ .. (١٠٩)﴾ [الأنبيـاء] مـادة : أذن ومنهـا الأذان تعنى الإعـلام بالشىء ، والأصل فى الإعـلام كان في الأُذُن بالكلام ، حـيث لم يكُنْ عندهم قراءة وكـتابة ، فاعتـمد الإعلام على الكلام والسـماع بالأذن ، فمعنى : ﴿آذَنتُكُمْ .. (١٠٩)﴾ [الأنبياء] أعلمتُكم وأخبرتُكم .

وقوله تعالى : ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ .. (١٠٩)﴾ [الأنبياء] يعنى : جاء الإعلام لكم جـميـعاً لم أخصّ أحـداً دون الآخر ، فـأنتم فى الإعلام سـواء ، لا يتميز منكم أحـد على أحد ؛ لذلك كان النبى ﷺ يحرص على إبلاغ الجميع ، فيقول :

« نضَّـر الله امْـرأ سـمع مـقـالتى فـوعـاها ، ثـم أدَّاها إلى مَنْ لم يسـمعـها ، فـرُبَّ مبلَّغ أوعى من سـامع »[1] وهكذا يشـيع الخيْـر ويتداول بين الجميع .

﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ .. (١٠٩)﴾ [الأنبياء] فلم أُعْلِم قـوماً دون قوم ، ولم أُسْمِع أُذنـاً دون أُذن ، وجعلت من كمال الإيمـان أن يخبر السامع مَنْ لم يسمع ؛ لأنه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

ثم يُنبِّههم إلى أمر الساعة : ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩)﴾ [الأنبياء] فانـتبهـوا وخُذوا بالكم ، واحـتاطوا ، فـلا أدرى لعلَّ الساعةَ تكون قريباً ، ولعلها تفاجئكم قبل أنْ أُنهى كلامى معكم .

لذلك ؛ لمـا سألوا أحـد الصـالحين : فِـيمَ أفنيتَ عـمرك ؟ قـال :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجة فى سننه (٢٣٢) والحميدى فى مسنده (١/ ٤٧) من حـديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

« أفنيتُ عمرى فى أربعة أشياء : علمت أنى لا أخلو من نظر الله طَرْفة عين فاستحييتُ أنْ أعصيه ، وعلمتُ أن لى رزْقاً لا يتجاوزنى قد ضمنه الله لى فقنعتُ به ، وعلمتُ أن علىَّ دَيْناً لا يؤديه عنى غيرى فاشتَغلتُ به ، وعلمتُ أن لى أجَلاً يبادرنى فبادرتُه » .

إذن : فالمراد : استعدوا لهذه المسألة قبل أن تفاجئكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

وما دام ربك - عز وجل - يعلم الجهر ويعلم السرَّ وأخْفى ، فإياك أنْ تنافق ؛ لأننا ننهاك عن النفاق مع البشر ، فمن باب أوْلَى أن ننهاك عن نفاق ربك سبحانه الذى يعلم سرَّك كما يعلم علانيتك ، وقصارى أمر البشر أنْ يُراقبوا علانيتك . لَذلك ، فإن كل احتياطات أهل الإجرام التخفِّى عن أعين الدولة ، والهرب من مراقبة الشرطة ، لكن كيف التخفى عن نظر الله وعلمه ؟

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنبياء] يُعلِّمنا الأدب حتى فيما نكتم ، فالأدب فى الجهر من باب أوْلَى ، ونحن مؤمنون بأن الله سبحانه غَيْب غير مشهد ، وهَبْ أنك فى بيتك تعلم كل شىء فيه ؛ لأنه مشهد لك ، أمّا ما كان خارج البيت فهو غَيْب عنك لا تعلمه ، أمّا الحق سبحانه فهو غَيْب يعلم كل مَشْهد وكل غيب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾

أى : لعل الإمهال وبقاءكم دون عذاب وتباطؤ الساعة عنكم فتنةٌ واختبار ، يا ترى أتوفَّقون وتفوزون فى هذا الاختبار ، كما قال سبحانه فى موضع آخر :

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

وقال تعالى : ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) ﴾ [الأنبياء] أى : لن يدوم هذا النعيم وهذا المتاع ؛ لأن له مدة موقوتة .

ثم يقول الحق سبحانه فى ختام سورة الأنبياء :

﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ[1] وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنبياء] كما دعا بذلك الرسل السابقون : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ[2] بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾ [الأعراف]

---

(١) قال قتادة : كانت الأنبياء تقول ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ .. (٨٩) ﴾ [الأعراف] فأمر النبى ﷺ أن يقول : ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنبياء] فكان إذا لقى العدو يقول ـ وهو يعلم أنه على الحق وعدوه على الباطل ـ ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنبياء] أى : اقض به . ذكره القرطبى فى تفسيره (٦/٤٥٣٢) والسيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٨٩) وعزاه لابن أبى حاتم .

(٢) أى : انصرنا عليهم ، ويجوز أن يكون المعنى : ربنا افتح بيننا وبين قومنا باب التفاهم والمحبة بالحق حتى يؤمنوا ويتركوا عنادهم . [القاموس القويم ٢/٧٠] .

وهل يحكم الله سبحانه إلا بالحق ؟ قالوا[1] : الحق سبحانه يُبيِّن لنا ؛ لأننا عشْنا فى الدنيا ورأينا كثيراً من الباطل ، فكأننا لأول مرة نسمع الحكَم بالحق .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَـٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) ﴾ [الأنبياء] أى : المستعان على ما تُجرمون فيه من نسبتنا إلى الجنون ، أو إلى السحر .. الخ .

وتلاحظ أن الحق سبحانه فى آيات سورة الأنبياء تكلم عن طَيِّ السماء كطيٍّ السجل للكتب ، ثم قال ﴿ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ .. (١١١) ﴾ [الأنبياء] ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) ﴾ [الأنبياء] ، ثم قال : ﴿ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ .. (١١٢) ﴾ [الأنبياء]

هذا كله ليُقرِّب لنا مسألة الساعة وقيامها ، ويُعِدُّنا لاستقبال « سورة الحج » .

(١) قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن جرير الطبرى وابن المنذر ، أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٨٩) قال : لا يحكم الله إلا بالحق ، ولكن إنما يستعجل بذلك فى الدنيا يسأل ربه على قومه .


سورة الحج

سورة الحج(1)



﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) ﴾

الخطاب هنا عام للناس جميعاً ، وعادةً ما يأتى الخطاب الذى يطلب الإيمان عاماً لكل الناس ، إنما ساعة يطلب تنفيذ حكم شرعى يقول : يا أيها الذين آمنوا .

لذلك يقول هنا : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. (١) ﴾ [الحج] يريد أنْ يلفتهم إلى قوة الإيمان . وكلمة ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. (١) ﴾ [الحج] التقوى : أنْ تجعل بينك وبين ما أحدِّثك عنه وقاية ، أى : شيئاً يقيك العذاب الذى لا طاقة لك به .

---

(١) سورة الحج هى السورة رقم (٢٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٧٨ آية ، وهى سورة مختلطة فيها آيات مدنية ، وآيات مكية ، وهو قول جمهور العلماء . قاله ابن الغرس فى أحكام القرآن فيما نقله عنه السيوطى فى (الإتقان فى علوم القرآن ١/ ٣٢) ورجحه القرطبى أيضاً فى تفسيره (٦/ ٤٥٣٣) وقال : « وهذا هو الأصح » .

قال الغزنوى : « هى من أعاجيب السور ، نزلت ليلاً ونهاراً ، وسفراً وحضراً ، مكياً ومدنياً ، سلمياً وحربياً ، ناسخاً ومنسوخاً ، محكماً ومتشابهاً ، مختلف العدد » . نقله القرطبى فى تفسيره (٦/ ٤٥٣٣) .

ونلحظ أن الله تعالى يقول مرة : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ .. (١٩٤)﴾ [البقرة] ومرة يقول : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ ..(٢٤)﴾ [البقرة] نعم ، لأن المعنى ينتهى إلى شىء واحد . معنى : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ ..(٢٤)﴾ [البقرة] أى : اجعل بينك وبينها وقاية تحميك منها ، ويكون هذا بفعْل الأمر وتَرْكْ النهى .

وقوله : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ .. (١٩٤)﴾ [البقرة] لأن لله تعالى صفات جمال ، وصفات جلال ، صفات الجمال كالرحمن ، والرحيم ، والباسط والستار ، وصفات الجلال كالقهار والجبار وغيرها مما نخاف منه .

فاجعل بينك وبين صفات الجلال وقايةً ، فليستْ بك طاقة لقاهريته ، وبطشه سبحانه ، والنار من جنود الله ، ومن مظاهر قَهْره . فكما نقول : اتقِّ الله نقول : اتقِّ النار .

واختار فى هذا الأمر صفة الربوبية ، فقال : ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. (١)﴾ [الحج] ولم يقُلْ : اتقوا الله ؛ لأن الرب هو المتولِّى للرعاية وللتربية ، فالذى يُحذّرك هو الذى يُحبك ويُعطيك ، وهو الذى خلقك وربَّاك ورعاك .

فالربوبية عطاء : إيجاد من عَدم وإمداد من عُدم ، فأوْلَى بك أن تتقيه ، لأنه قدَّم لك الجميل .

أما صفة الألوهية فتعنى التكاليف والعبادة بافْعل ولا تفعل ، الله معبود ومُطَاع فيما أمر وفيما نَهَى .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)﴾ [الحج] الزلزلة : هى الحركة العنيفة الشديدة التى تُخرج الأشياء عن ثباتها ، كما لو أردتَ أنْ تخلعَ وتداً من الأرض ، فعليك أولاً أنْ تهزّه وتخلخله من مكانه ، حتى تجعل له مجالاً فى الأرض يخرج منه ،

إنما لو حاولت جذْبه بدايةً فسوف تجد مجهوداً ومشقة فى خَلْعه ، وكذلك يفعل الطبيب فى خلع الضِّرس .

فمعنى الزلزلة : الحركة الشديدة التى تزيل الأشياء عن أماكنها ، والحق سبحانه وتعالى تكلم عن هذه الحركة كثيراً فقال : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ[1] الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦) ﴾[الواقعة]

ويقول : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة]

فالزلزال هنا ليس زلزالاً كالذى نراه من هزّات أرضية تهدم بعض البيوت ، أو حتى تبتلع بعض القرى ، فهذه مجرد آيات كونية تثبت صدْق البلاغ عن الله ، وتنبهك إلى الزلزال الكبير فى الآخرة ، إنه صورة مصغرة لما سيحدث فى الآخرة ، حتى لا نغتر بسيادتنا فى الدنيا فإن السيادة هبة لنا من الله .

وعندما حدث زلزال « أغادير » لاحظوا أن الحيوانات ثارتْ وهاجتْ قبل الزلزال بدقائق ، ومنها ما خرج إلى الخلاء ، فأىُّ إعلام هذا ؟ وأىُّ استشعار لديها وهى بهائم فى نظرنا لا تفهم ولا تعى ؟

إن فى ذلك إشارة للإنسان الذى يعتبر نفسه سيد هذا الكون : تنبّه ، فلولا أن الله سَيَّدك لوكزتْكَ هذه البهائم فقضت عليك .

نقول : ليس هذا زلزالاً عاماً ، إنما هو زلزال مخصوص منسوب إلى الأرض بوحى من الله ، وبأمر منه سبحانه أن تتزلزل .

---

(١) بسَّه : فتَّه وجعله أجزاء دقيقة . أى : فُتِّتَتْ تفتيتاً شديداً . [القاموس القويم ١/٦٦] .

لذلك وُصف هذا الزلزال بأنه شيء عظيم : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ①﴾ [الحج] فحين تقول أنت أيها الإنسان : هذا شيء عظيم فهو عظيم بمقياسك أنت ، أما العظيم هنا فعظيم بمقاييس الحق سبحانه ، فلكَ أن تتصوَّر فظاعة زلزال وصفه الله سبحانه بأنه عظيم .

لقد افتُتحَتْ هذه السورة بزلزلة القيامة ؛ لأن الحق سبحانه سبق أنْ قال : ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ .. ⑨⑦﴾ [الأنبياء] فلا بُدَّ أنْ يعطينا هنا صورة لهذا الوعد ، ونُبْذة عما سيحدث فيه ، وصورة مُصغَّرة تدل على قدرته تعالى على زلزال الآخرة ، وأن الأرض ليس لها قوام بذاتها ، إنما قوامها بأمر الله وقدرته ، فإذا أراد لها أنْ تزول زالتْ .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ②﴾ [الزلزلة]

فَمَا نراه من البراكين ومن الثروات في باطن الأرض وعجائب يقع تحت هذه الآية ؛ لذلك قال تعالى : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ⑥﴾ [طه]

وما دام الحق سبحانه يمتنُّ بملكية ما تحت الثَّرى فلا بُدَّ أن تحت الثرى ثروات وأشياءَ نفيسة ، ونحن الآن تُخرج معظم الثروات من باطن الأرض ، ومعظم الأمم الغنية تعتمد على الثروات المدفونة من بترول ومعادن ومناجم وذهب .. إلخ .

وسبق أن ذكرنا أن الحق - سبحانه وتعالى - بعثَر الخيرات في كونه ، وجعل لكل منها وقته المناسب ، فالرزق له ميلاد يظهر فيه : ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ②①﴾ [الحجر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ[1] كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾

والرؤية : قلنا قد تكون رؤية علمية أو رؤية بصرية ، والشيء الذى نعلمه إما : علمَ اليقين ، وإما عين اليقين ، وإما حقيقة اليقين . علم اليقين : أنْ يخبر مَنْ تثق به بشيء ، كما تواترت الأخبار عن الرحالة بوجود قارة أسموها فيما بعد أمريكا ، وبها كذا وكذا ، فهذا نسميه « علم يقين » ، فإذا ركبت الطائرة إلى أمريكا فرأيتها وشاهدت ما بها فهذا « عين اليقين » فإذا نزلتَ بها وتجولتَ بين شوارعها ومبانيها فهذا نسميه « حقيقة اليقين » .

لذلك ؛ حين يخبر الله تعالى الكافرين بأن هناك عذاباً فى النار فهذا الإخبار صادق من الله فعلْمنا به « علم يقين » ، فإذا رأيناها فهذا « عين اليقين » كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ﴾ [التكاثر]

فإذا ما باشرها أهلها ، وذاقوا حرّها ولظاها ـ وهذا مقصور على أهل النار ـ فقد علموها حقَّ اليقين ، لذلك يقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣)

(١) أى : تشتغل . قاله قطرب . وقيل : تنسى ، وقيل : تلهو ، وقيل : تسلو والمعنى متقارب . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٣٦] .

وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

ومعنى : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ .. (٢) ﴾ [الحج] الذهول : هو انصراف جارحة عن مهمتها الحقيقية لهوْل رأتْه فتنشغل بما رأته عن تأدية وظيفتها ، كما يذهل الخادم حين يرى شخصاً مهيباً أو عظيماً ، فيسقط ما بيده مثلاً ، فالذهول - إذن - سلوك لا إرادى قد يكون ذهولاً عن شيء تفرضه العاطفة ، أو عن شيء تفرضه الغريزة .

العاطفة كالأم التى تذهَلُ عن ولدها ، وعاطفة الأمومة تتناسب مع حاجة الولد ، ففى مرحلة الحمل مثلاً تجد الأم تحتاط فى مشيتها ، وفى حركاتها ، خوفاً على الجنين فى بطنها ، وهذه العاطفة من الله جعلها فى قلب الأم للحفاظ على الوليد ، وإلاَّ تعرض لما يؤذيه أو يُودى بحياته .

لذلك ، لما سألوا المرأة العربية عن أحب أبنائها ، قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يُشْفَى ، فحسب الحاجة يعطى الله العاطفة ، فالحامل عاطفتها نحو ولدها قوية ، وهى كذلك فى مرحلة الرضاعة .

فانظر إلى المرضعة ، وكيف تذهل عن رضيعها وتنصرف عنه ، وأىُّ هول هذا الذى يشغلها ، ويُعطِّل عندها عاطفة الأمومة والحنان وتُعطِّل حتى الغريزة .

وقد أعطانا القرآن صورة أخرى فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) ﴾ [عبس]

ومن عظمة الأسلوب القرآني أن يذكر هنا الأخ قبل الأب والأم ، قالوا : لأن الوالدين قد يُوجدان في وقت لا يرى أنهما في حاجة إليه ، ولا هو في حاجة إليهما لأنه كبر ، أمَّا الأخ ففيه طمع المعونة والمساعدة .

وقوله تعالى : ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ .. (٢)﴾ [الحج]

والمرضعة تأتي بفتح الضاد وكَسْرها : مُرضَعة بالفتح هي التي من شأنها أن ترضع وصالحة لهذه العملية ، أما مُرضِعة بالكسر فهي التي تُرضِع فعلاً ، وتضع الآن ثديها في فَم ولدها ، فهي مرضِعة . فانظر ـ إذن ـ إلى مدى الذهول والانشغال في مثل هذه الحالة .

وقوله تعالى : ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا .. (٢)﴾ [الحج] بعد أنْ تكلَّم عن المرضع رقَّى المسألة إلى الحامل ، ومعلوم أن الاستمساك بالحمل غريزة قوية لدى الأم حتى في تكوينها الجسماني ، فالرحم بمجرد أنْ تصل إليه البويضة المخصبة ينغلق عليها ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٥)﴾ [الحج]

فإذا ما جاء وقت الميلاد انفتح له بقدرة الله ، فهذه ـ إذن ـ مسألة غريزية فوق قدرة الأم ودون إرادتها . إذن : وَضْع هذا الحمل دليل هَوْل كبير وأمر عظيم يحدث .

والحَمْل نوعان : ثقل تحمله وهو غيرك ، وثقل تحمله في ذاتك ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً (١٠١)﴾ [طه] والحِمْل (بكسر الحاء) : هو الشيء الثقيل الذي لا يُطيقه ظهرك ، أمَّا الحَمْل بالفتح فهو : الشيء اليسير تحمله في نفسك . وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

لَيْسَ بحِمْلٍ مَا أَطَاقَ الظَّهْرُ مَا الحِمْلُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ

أى : أن الشىء الذى تطيق حَمْلَه ويَقْوى عليه ظهرك ليس بحمل ، إنما الحمل هو الهمّ الذى يحتويه الصدر .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ②﴾ [الحج]

سكارى : أى يتمايلون مضطربين ، مثل السكارى حين تلعب بهم الخمر ، (وتطوحهم) يميناً وشمالاً ، وتُلقى بهم على الأرض ، وكلما زاد سُكْرهم وخروجهم عن طبيعتهم كان النوع شديداً !!

وهكذا سيكون الحال فى موقف القيامة لا من سُكْر ولكن من خوف وهَوْل وفزع ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ②﴾ [الحج]

لكن ، من أين يأتى اضطراب الحركة هذا ؟

قالوا : لأن الله تعالى خلق الجوارح ، وخلق فى كل جارحة غريزة الانضباط والتوازن ، وعلماء التشريح يُحدِّدون فى الجسم أعضاء ومناطق معينة مسئولة عن حفْظ التوازن للجسم ، فإذا ما تأثرتْ هذه الغدد والأعضاء يشعر الإنسانَ بالدُّوار ، ويفقد توازنه ، كأنْ تنظر من مكان مرتفع ، أو تسافر فى البحر مثلاً .

فهذا الاضطراب لا من سُكْر ، ولكن من هَوْل ما يرونه ، فيُحدث لديهم تغييراً فى الغُدد والخلايا المسئولة عن التوازن ، فيتمايلون ، كمن اغتالتْه الخمر .

وقوله تعالى : ﴿وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ②﴾ [الحج] إنهم لم يَرَوْا العذاب بَعْد ، إنما مجرد قيام الساعة وأهوالها أفقدتهم توازنهم ؛

لأن الذى يَصْدُق فى أن القيامة تقوم بهذه الصورة يَصْدُق فى أن بعدها عذاباً فى جهنم ، إذن : انتهت المسألة وما كنا نكذب به ، ها هو ماثل أمام أعيننا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ[1] مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾

الجدل : هو المحاورة بين اثنين ، يريد كل منهما أنْ يؤيد رأيه ويدحضَ رأىَ الآخر ، ومنه : جَدْل الخوص أو الحبل أى : فَتْله واحدة على الأخرى .

ولو تأملتَ عملية غَزْل الصوف أو القطن لوجدته عبارة عن شعيرات قصيرة لا تتجاوز عدة سنتيمترات ، ومع ذلك يصنعون منه حَبْلاً طويلاً ، لأنهم يداخلون هذه الشعيرات بعضها فى بعض ، بحيث يكون طرف الشعرة فى منتصف الأخرى ، وهكذا يتم فَتْله وغَزْله ، فإذا أردتَ تقوية هذه الفَتْلة تجدلُها مع فتلة أخرى ، وهكذا يكون الجدل فى الأفكار ، فكل صاحب فكرة يحاول أنْ يُقوِّى رأيه وحجته ؛ ليدحض حجة الآخرين .

فقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الحج] فكيف يكون الجدل فى الله تعالى ؟

يكون الجدل فى الله وجوداً ، كالملحد الذى لا يعترف بوجود إله ،

(١) قال أبو مالك فيما أخرجه ابن أبى حاتم : نزلت فى النضر بن الحارث [الدر المنثور للسيوطى ٨/٦] . قال القرطبى فى تفسيره (٤٥٣٧/٦) : « قال أى : النضر بن الحارث : إن الله غير قادر على إحياء من قد بلى وعاد تراباً » .

أو يكون الجدل فى الوحدانية ، كمن يشرك بالله إلهاً آخر ، أو يكون الجدل فى إعلام الله بشىء غيبى ، كأمر الساعة الذى ينكره البعض ولا يُصدِّقون به ، هذا كله جدل فى الله .

وقوله : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٣)﴾ [الحج] إذن : فالجدل فى ذاته مُبَاح مشروع ، شريطة أن يصدر عن علم وفقه ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ.. (١٢٥)﴾ [النحل]

فالحق سبحانه لا يمنع الجدل ، لكن يريده بالطريقة الحسنة والأسلوب اللين ، وكما يقولون : النصح ثقيل ، فلا تجعله جَدَلاً ، ولا ترسله جبلاً ، ولا تُخرج الإنسان مما يألف بما يكره ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ.. (١٢٥)﴾[النحل]

وقال سبحانه : ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ .. (٤٦)﴾ [العنكبوت]

لذلك ؛ فالقرآن الكريم يعلم الرسول ﷺ لَوْناً من الجدل فى قوله تعالى : ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ]

فانظر إلى هذا الجدَل الراقى والأسلوب العالى : ففى خطابهم يقول : ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. (٢٥)﴾ [سبأ] وينسب الإجرام إلى نفسه ، وحين يتكلم عن نفسه يقول : ﴿وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ] ولم يقُلْ هنا : تجرمون لتكون مقابلة بين الحالين . وفى هذا الأسلوب ما فيه من جذب القلوب وتحنينها لتقبُّل الحق .

ولما اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون ردَّ عليهم القرآن بالعقل وبالمنطق ، فسألهم : ما الجنون ؟ الجنون أنْ تصدر الأفعال الحركية عن غير بدائل اختيارية من المخ ، فهل جرَّبْتُم على محمد شيئاً من

هذا ؟ وما هو الخُلق ؟ الخُلق : استقامة المنهج والسلوك على طريق الكمال والخير ، فهل رأيتم على محمد خلاف هذا ؟

لذلك يقول تعالى فى الرد عليهم : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا[1] مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦)﴾ [سبأ]

وكيف يكون صاحب هذا الخلُق القويم والسلوك المنضبط فى الخير مجنوناً ؟

ولما قالوا : كذاب ، جادلهم القرآن : ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

لقد أتته الرسالة بعد الأربعين ، فهل سمعتم عنه خطيباً أو شاعراً ؟ فهل قال خطبة أو قصيدة تحتفظون بها كما تحتفظون بقصائد شعرائكم ؟

وقالوا : إنها عبقرية كانت عند محمد ، فأىُّ عبقرية هذه التى تتفجَّر بعد الأربعين ، ولو تأملْتَ العبقريات لوجدتها فى العقد الثانى أو الثالث من عمر صاحبها ، فكيف يُؤجِّل محمد عبقريته إلى الأربعين ، ومَنْ يضمن له الحياة وهو يرى الناس يتساقطون من حوله : أبوه مات قبل أنْ يُولد ، وأمه ماتت وهو رضيع ، وجدُّه مات وهو ما يزال صغيراً .

وهكذا ، يعطينا القرآن مثالاً للجدل بالحكمة والموعظة الحسنة ، للجدل الصادر عن علْم بما تقول ، وإدراك لحقائق الأمور .

---

(١) أى : تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضاً : هل بمحمد من جنون فينصح بعضكم بعضاً ، فينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد ﷺ ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر فى ذلك . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٥٤٣/٣] .

لذلك ؛ لما ذهب الشَّعْبى[1] لملك الروم قال له الملك : عندكم فى الإسلام أمور لا يُصدِّقها العقل ، فقال الشَّعْبىّ : ما الذى فى الإسلام يخالف العقل ؟ قال : تقولون إن فى الجنة طعاماً لا ينفد أبداً ، ونحن نعلم أن كل ما أُخذ منه مرة بعد مرة لابُدَّ أنْ ينفد . انظر إلى الجدل فى هذه المسألة كيف يكون .

قال الشَّعْبى : أرأيتَ لو أن عندك مصباحاً ، وجاءت الدنيا كلها فقبستْ من ضوئه ، أينقص من ضوء المصباح شىء ؟ هذا ـ إذن ـ جدل راقٍ وعلى أعلى مستوى .

ويستمر ملك الروم فيقول : كيف نأكل فى الجنة كُلَّ ما نشتهى دون أنْ نتغوَّط أو تكون لنا فضلات ؟ نقول : أرأيتم الجنين فى بطن الأم : أينمو أم لا ؟ إنه ينمو يوماً بعد يوم ، وهذا دليل على أنه يتغذَّى ، فهل له فضلات ؟ لو كان للجنين فضلات ولو تغوَّط فى مشيمته لمات ، إذن : يتغذى الجنين غذاءً على قَدْر حاجة نموه ، بحيث لا يتبقى من غذائه شىء .

ثم قال : أين تذهب الأرواح بعد أنْ تفارق الأجساد ؟ أجاب الرجل إجمالاً : تذهب حيث كانت قبل أنْ تحلَّ فيك ، وأمامك المصباح وفيه ضوء ، ثم نفخ المصباح فانطفأ ، فقال له : أين ذهب الضوء ؟

ومن الجدل الذى جاء عن علْم ودراية ما حدث من الإمام على رضى الله عنه ، حيث قَتلَ أصحابُ معاوية عمارَ بن ياسر ، فغضب الصحابة فى صفوف معاوية وتذكَّروا قول رسول الله ﷺ عن عمار :

(١) هو : عامر بن شراحيل الشعبى الحميرى ، أبو عمرو ، راوية من التابعين ، يُضرب المثل بحفظه ، ولد عام ١٩ هـ ، ونشأ ومات فجأة بالكوفة عام ١٠٣ هـ عن ٨٤ عاماً اتصل بعبد الملك بن مروان فكان نديمه ورسوله إلى ملك الروم ، كان ضئيلاً نحيفاً ، وهو من رجال الحديث الثقات ، وفقيهاً وشاعراً . [الأعلام للزركلى ٣/٢٥١] .

« تقتله الفئة الباغية »[1] وأخذوا يتركون جيش معاوية واحداً بعد الآخر ، فذهب عمرو بن العاص إلى معاوية وقال : لقد فشَتْ فى الجيش فاشية ، إنْ هى استمرتْ فلن يبقى معنا رجل واحد ، فقال معاوية : وما هى ؟ قال : يقولون : إننا قتلنا عماراً والنبى ﷺ قال عنه : « تقتله الفئة الباغية » .

فاحتار معاوية ثم قال : قُلْ لهم قتله مَنْ أخرجه للقتال[2] ـ يعنى : على بن أبى طالب ، فلما بلغ الكلامُ سيدنا علياً ، قال : قولوا لهم : فمَنْ قتل حمزة بن عبد المطلب ؟ أى : إن كان الأمر كما تقولون فالنبى ﷺ هو قاتل حمزة ؛ لأنه هو الذى أخرجه للقتال .

هذا هو الجدل عن علم ، والعلم قد يكون علماً بدهياً وهو العلم الذى تؤمن به ولا تستطيع أن تدلل عليه . أو علماً عقلياً استدلالياً ، وقد يكون العلم بالوحى من الله لا دَخْلَ لأحد فيه ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً للبدهيات بالولد الصغير حينما يرى أخاه يجلس بجوار أبيه على المقعد مثلاً ، فيأتى الصغير يريد أنْ يجلس هو بجوار الأب ، فيحاول أولاً أنْ يقيم أخاه من المكان فيشدُّه ويجذبه ليخلى له المكان .

وهنا نتساءل : كيف عرف الطفل الصغير أن الحيِّز لا يسع اثنين ؟ ولا يمكن أنْ يحلَّ بالمكان شىء إلا إذا خرج ما فيه أولاً ؟

---

(١) عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩١٦) كتاب الفتن ، والبخارى فى صحيحه (٤٤٧) .

(٢) عن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال : لما قتل عمار بن ياسر دخل عمرو بن حزم على عمرو ابن العاص فقال : قُتل عمار . وقد قال رسول الله ﷺ : تقتله الفئة الباغية ، فقام عمرو بن العاص فزعاً يرجع حتى دخل على معاوية فقال له معاوية : ما شأنك ؟ قال : قتل عمار . فقال معاوية : قد قتل عمار ، فماذا ؟ قال عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : تقتله الفئة الباغية . فقال له معاوية : دحضت فى بولك أو نحن قتلناه إنما قتله على وأصحابه ، جاءوا به حتى ألقوه بين رماحنا ـ أو قال : بين سيوفنا . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٩٩) .

هذه أمور لم نعلمها إلا فى دراستنا الثانوية ، فعرفنا معنى الحيِّز وعدم تداخل الأشياء ، هذه المسألة يعرفها الطفل بديهة .

ولو تأملتَ النظريات الهندسية لوجدتَ أن كل نظرية تُبنَى على نظرية سابقة ، فلو أردت أنْ تبرهن على النظرية المائة تستخدم النظرية تسعين مثلاً ، وهكذا إلى أنْ تصلَ إلى نظرية بدهية لا برهانَ عليها .

وهكذا تستطيع أن تقول : إن كل شىء علمى فى الكون مبنىٌّ على البدهيات التى لا تحتاج إلى برهان ، ولا تستطيع أن تضع لها تعريفاً ، فالسماء مثلاً ، يقولون : هى كل ما علاك فأظلَّك ، فالسقف سماء ، والغيم سماء ، والسحاب سماء ، والسماء سماء ، مع أن السماء لا تحتاج إلى مثل هذا التعريف ؛ لأنك حين تسمع هذه الكلمة (السماء) تعرف معناها بديهة دون تعريف .

وهذه الأمور البدهية لا جدلَ فيها ؛ لأنها واضحة ، فلو قلتَ لهذا الطفل : اجلس على أخيك ، فهذا ليس جدلاً ؛ لأنه لا يصح .

أما العلم الاستدلالى فأنْ تستدل بشىء على شىء ، كأنْ تدخل بيتك فتجد (عقب سيجارة) مثلاً فى (طفاية السجائر) فتسأل : مَنْ جاءكم اليوم ؟ ومثل الرجل العربى حين سار فى الصحراء ، فوجد على الأرض آثاراً لخفِّ البعير وبَعْره ، فقال : البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير .

أما عِلْم الوحى فيأتى من أعلى ، يلقيه الله سبحانه على مَنْ يشاء من عباده .

فعلى المجادل أن يستخدم واحداً من هذه الثلاثة ليجادل به ، فإن جادل بغير علم فهى سفسطة لا طائل من ورائها .

وقد نزلت هذه الآية : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ③﴾ [الحج] فى النضر بن الحارث ، وكان يجادل عن غير علم فى الوجود ، وفى الوحدانية ، وفى البعث .. إلخ .

والآية لا تخص النضر وحده ، وإنما تخص كل مَنْ فعل فعْله ، ولَفَّ لفَّه من الجدل..

ثم يقول تعالى : ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ③﴾ [الحج] أى : أن هذا الجدل قد يكون ذاتياً من عنده ، أو بوسوسة الشيطان له بما يخالف منهج الله ، سواء أكان شيطانَ الإنس أو شيطانَ الجن .

إذن : فالسيئات والانحرافات والخروج عن منهج الله لا يكون بوسوسة ، إما من النفس التى لا تنتهى عن مخالفة ، وإما من الشيطان الذى يُلِحُّ عليك إلى أنْ يُوقِع بك فى شِرَاكه .

لكن ، لا نجعل الشيطان (شماعة) نعلق عليها كل سيئاتنا وخطايانا ، فليست كل الذنوب من الشيطان ، فمن الذنوب ما يكون من النفس ذاتها ، وسبق أنْ قُلْنا : إذا كان الشيطان هو الذى يوسوس بالشر ، فمَنِ الذى وسوس له أولاً ؟ وكما قال الشاعر :

* إبْلِيسُ لَمَّا غَوَى مَنْ كَانَ إبليسُه ؟ *

وفَرْق بين المعصية من طريق النفس ، والمعصية من طريق الشيطان ، الشيطان يريدك عاصياً على أىِّ وجه من الوجوه ، أمّا النفس فتريدك عاصياً من وجه واحد لا تحيد عنه ، فإذا صرفتَها إلى غيره لا تنصرف وتأبى عليك ، إلاَّ أنْ تُوقعك فى هذا الشىء بالذات .

وهذا بخـلاف الشيـطان إذا تأبيْتَ عليـه ولم تُطعْهُ فى مـعـصيـة صرفـكَ إلى معـصيـة أخرى ، أياً كـانت ، المهم أن تعـصى ، وهكذا يمكنك أنْ تُفرِّق بين المعصية من نفسك ، أو من الشيطان .

ولما سُـئل أحد العلمـاء : كيف أعرف : أأنا من أهـل الدنيا أَمْ من أهل الآخرة ؟ قـال : هذه مسألـة ليستْ عند العلماء إنـما عندك أنت ، قـال : كـيف ؟ قـال : انظر فى نفـسك ، فـإنْ كـان الذى يأخـذ منك الصدقة أحبّ إليك ممَّنْ يعطيك هدية ، فاعلم أنك من أهل الآخرة ، وإنْ كانت الهدية أحبَّ إليك من الصدقة فأنت من أهل الدنيا .

ذلك لأن الإنسـان يحب من عـمَّـر له مـا يحـب ، فالـذى يعطيـك يعمر لك الدنيا التى تـحبها فأنت تحبه ، وكـذلك الذى يأخذ منك يعمر لك الآخـرة التى تحـبها فأنـت تحبه . فـهذه مسألـة لا دَخْل للشيطان فيهـا .

وفى آية أخـرى يقول الحق سـبحانه وتـعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ⦗٢٠⦘ ﴾ [لقمان]

فهـذه الآية تُجمل أنـواع العلم الثلاثة التى تحـدثنا عنها : فـالعلم يُرَاد به البدهيـات ، والهدى أى : الاستدلال ، والكتـاب المنير يُراد به ما جاء وَحْياً من الله ، وبهذه الثلاثة يجب أن يكون الجدال وبالتى هى أحسن .

ومعنى : ﴿ مَّرِيدٍ ⦗٣⦘ ﴾ [الحج] من مَرَدَ أو مَرُدَ يمـرد كنثر ينثُر ، والمـرود : العُـتـوُّ وبلوغ الغـاية من الفـسـاد ، ومنهـا مـارد ومـريد ومتمرد ، والمارد : هو المستعلى أعلى منك .

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾

أى : كتب الله على هذا الشيطان المريد ، وحكم عليه حُكماً ظاهراً ، هكذا (عينى عينك) كما يقال ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ .. ﴿٤﴾﴾ [الحج] أى : تابعه وسار خلفه ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج] يضله ويهديه ضدّان ، فكيف نجمع بينهما ؟

المراد : يُضلُّه عن طريق الحق والخير ، ويهديه أى : للشر ؛ لأن معنى الهداية : الدلالة مُطْلقاً ، فإن دللْتَ على خير فهى هداية ، وإن دللتَ على شر فهى أيضاً هداية .

واقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[1] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات]

أى : دُلُّوهم وخُذوا بأيديهم إلى جهنم .

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء]

والسَّعير : هى النار المتوهّجة التى لا تخمد ولا تنطفىء .

---

(١) قال النعمان بن بشير : يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم . قال عمر : يجىء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر . [تفسير ابن كثير ٤/٣] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ(١) ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ(٢) لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ۝٥ ﴾

قوله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ .. ۝٥ ﴾ [الحج]

الريب : الشك . فالمعنى : إنْ كنتم شاكّين فى مسألة البعث ، فإليكم الدليل على صدْقه ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ .. ۝٥ ﴾ [الحج] أى : الخَلْق الأول ، وهو آدم عليه السلام ، أما جمهرة الناس بعد آدم فخُلقوا من (نطفة) حية من إنسان حى .

---

(١) النطفة : الماء الصافى ، وتطلق فى القرآن على ماء الرجل أو المرأة الذى يُخْلق منه الولد . العلقة : الدم الجامد الغليظ الذى يَعْلق بما يمسُّه . والمضغة : القطعة من اللحم تُمضَغ لتماسكها . ومخلقة : أى مضغة مشكلة ومصورة على هيئة طفل . وغير مخلقة : أى غير مشكّلة ، أى غير تامة التصوير [القاموس القويم للقرآن الكريم] .

(٢) هو : الهرم والخرف حتى لا يعقل . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٤٤] .

والمتتبع لآيات القرآن يجد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول مرة فى خَلْق الإنسان : ﴿مِّن تُرَابٍ ..(٥)﴾ [الحج] ، ومرة ﴿مِن مَّاءٍ .. (٦)﴾ [الطارق] ، و ﴿مِّن طِينٍ .. (٢)﴾ [الأنعام] ، و ﴿مِّنْ حَمَإٍ[1] مَّسْنُونٍ (٢٦)﴾ [الحجر] ، و ﴿مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤)﴾ [الرحمن] وهذه التى دعتْ المستشرقين إلى الاعتراض على أسلوب القرآن ، يقولون : من أىٍّ هذه الأشياء خُلِقْتم ؟

وهذا الاعتراض ناشىء من عدم فَهْم لغة القرآن ، فالتراب والماء والطين والحمأ المسنون والصلصال ، كلها مراحل متعددة للشىء الواحد ، فإذا وضعتَ الماء على التراب صار طيناً ، فإنْ تركتَ الطين حتى يتخمّر ، ويتداخل بعضه فى بعض حتى لا تستطيع أنْ تُميِّز عنصراً فيه عن الآخر . وهذا عندما يعطَنُ وتتغير رائحته يكون هو الحمأ المسنون ، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخار ، ومنه خلق اللهُ الإنسان وصوَّره ، ونفخ فيه من روحه ، إذن : هذه مراحل للشىء الواحد ، ومرور الشىء بمراحل مختلفة لا يُغيِّره .

ثم تكلم سبحانه عن الخَلْق الثانى بعد آدم عليه السلام ، وهم ذريته ، فقال : ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ .. (٥)﴾ [الحج] والنطفة فى الأصل هى قطرة الماء العَذْب ، كما جاء فى قول الشاعر :

بَقَايَا نِطَافٍ أودَعَ الغيمُ صَفْوَهَا مُثَقَّلَةٌ الأرجَاء زُرْقُ الجَوانبِ

ولا تظهر زُرْقة الماء إلا إذا كان صافياً لا يشوبه شىء ، وكذلك النطفة هى خلاصة الخلاصة ، لأن جسم الإنسان تحدث فيه عملية

(١) الحمأ والحَمْأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مصور بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

الاحـتراق ، وعـملية الأيض أى : الهـدم والبناء بصفة مـستـمرة ينتج عنهـا خروج الفـضلات الـمخـتلفة من الجـسم : فـالبول ، والغـائط ، والعرق ، والدمـوع ، وصَمْغ الأذن ، كلها فـضلات ناتجة عن احـتراق الطعام بداخل الجسم حيث يمتص الجسم خلاصة الغذاء ، وينقلها إلى الـدم .

ومن هذه الخـلاصـة يُسـتـخلص مـنىٌّ الإنســان الذى تؤخـذ منه النطفـة ، فهو ـ إذن ـ خـلاصة الخـلاصة فى الإنسان ، ومـنه يحدث الحمل ، ويتكوَّن الجنين ، وكـأن الخالق ـ عز وجل ـ قد صـفَّاها هذه التصفية ونقَّاها كل هذا النقـاء ؛ لأنها ستكون أَصْلاً لأكرم مخلوقاته ، وهو الإنسان .

وهذه النطفة لا تنزل من الإنسان إلا فى عملية الجماع ، وهى ألذُّ متعة فى وجود الإنسان الحىِّ ، لماذا ؟ لو تأملتَ متعة الإنسان ولذاته الأخرى مثل : لذة الذَّوْق ، أو الشم ، أو الملمس ، فـهى لذَّاتٌ معروفة محددة بحـاسَّة معينة من حـواس الإنسان ، أمَّا هذه اللذة المصـاحبة لنزول المنىِّ أثناء هذه العـمليـة الجنسيـة فهـى لذة شاملة يهـتز لهـا الجسم كلـه ، ولا تستطيع أنْ تُحدِّد فـيهـا منطقة الإحـسـاس ، بل كل ذرة من ذرات الجسم تحسـها .

لذلك أمرنا ربنا ـ عـز وجل ـ أن نغتسل بعد هذه العـملية ؛ لأنها شـغلتْ كل ذرة مـن ذرات تكوينك ، وربمـا ـ عند الـعـارفـين بالله ـ لا تغفل عن الله تعالى إلا فى هذه اللحظة ؛ لذلك كـان الأمر بالاغتسال بعدها ، هذا قول العلماء .

أما أهل المعرفة عن الله وأهل الشطح وأهل الفـيوضات فيقولون :

إن الله خلق آدم من طين ، وجعل نَسْله من هذه النطفة الحية التى وضعها فى حواء ، ثم أتى منها كل الخَلْق بعده ، فكأن فى كل واحد منا ذرة من أبيه آدم ؛ لأنه لو طرأ على هذه الذرة موت ما كان نَسْلٌ بعد آدم ، فهذه الذرة موجودة فيك فى النطفة التى تلقيها ويأتى منها ولدك ، وهى أصْفى شىء فيك ؛ لأنها الذرة التى شهدتْ الخَلْق الأول خَلْق أبيك آدم عليه السلام .

وقد قرّبنا هذه المسألة وقلنا : لو أنك أخذت سنتيمتراً من مادة ملونة ، ووضعته فى قارورة ماء ، ثم أخذتَ ترجُّ القارورة حتى اختلط الماء بالمادة الملونة فإن كل قطرة من الماء بها ذرة من هذه المادة ، وهكذا لو ألقيتَ القارورة فى برميل .. الخ .

إذن : فكل إنسان منّا فيه ذرة من أبيه آدم عليه السلام ، هذه الذرة شهدتْ خَلْق آدم ، وشهدتْ العهد الأول الذى أخذه الله على عباده فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

لذلك ؛ يُسمِّى الله تعالى إرسال الرسل بَعْثاً فيقول : ﴿ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) ﴾ [الفرقان] بعثه : كأنه كان موجوداً وله أصْل فى رسالة مباشرة من الله حين أخذ العهد على عباده ، وهم فى ظَهْر آدم عليه السلام ، كما يخاطب الرسول بقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾ [الغاشية] أى : مُذكِّر بالعهد القديم الذى أخذناه على أنفسنا .

لذلك اقرأ الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

هذا فى مرحلة الذَّرِّ قبل أن أنْ يأتى الهوى فى النفوس ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ [الأعراف]

إذن : بعث الله الرسل لتُذكِّر بالعهد الأول ، حتى لا تحدث الغفلة ، وحتى تقيم على الناس الحجة .

ثم يقول تعالى : ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ..(٥)﴾ [الحج] سمِّيت النطفة علقة ؛ لأنها تعلَقُ بالرحم ، يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨)﴾ [القيامة]

فالمنىُّ هو السائل الذى يحمل النطفة ، وهى الخلاصة التى يتكوَّن منها الجنين ، والعلَقة هنا هى البُويْضَة المخصَّبة ، فبعد أنْ كان للبويضة تعلُّق بالأم ، وللحيوان المنوى (النطفة) تعلُّق بالأب ، اجتمعا فى تعلُّق جديد والتقيَا ليتشبَّثا بجدار الرحم ، وكأن فيها ذاتية تجعلها تعلَق بنفسها ، يُسمُّونها (زيجوت) .

ومنها قولهم : فلان هذا مثل العلقة إذا كان ملازماً لك .

بعد ذلك تتحول العلقة إلى مضغة ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ .. (٥)﴾ [الحج] والمضغة : هى قطعة لحم صغيرة قَدْر ما يُمضغ من الطعام ، وهو خليط من عدَّة أشياء ، كما لو أكلتَ مثلاً قطعة لحم مع ملعقة خضار مع ملعقة أرز ، وبالمضغ يتحوَّل هذا إلى خليط ، ذلك لأن جسم الإنسان لا يتكوَّن من عنصر واحد ، بل من ستة عشر عنصراً .

هذه المضغة ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. (٥)﴾ [الحج] معنى مخلقة يعنى : يظهر عليها هيكل الجسم ، وتتشكَّل على صورته ، فهذه

للرأس ، وهذه للذراع ، وهذه للرِّجْل وهكذا ، يعنى تخلَّقَتْ على هيئة الإنسان .

أما غير المخلَّقة ، فقد عرفنا مؤخراً أنها الخلايا التى تُعوِّض الجسم وتُرقِّعه إذا أصابه عَطَب فهى بمثابة (احتياطى) لإعادة تركيب ما تلف من أنسجة الجسم وترميمها ، كما يحدث مثلاً فى حالة الجُرْح فإنْ تركتَه لطبيعة الجسم يندمل شيئاً فشيئاً ، دون أنْ يتركَ أثراً .

نرى هذا فى أولاد الفلاحين ، حين يُجرح الواحد منهم ، أو تظهر عنده بعض الدمامل ، فيتركونها لمقاومة الجسم الطبيعية ، وبعد فترة تتلاشى هذه الدمامل دون أنْ تتركَ أثراً على الإطلاق ؛ لأنهم تركوا الجسم للصيدلية الربانية .

أما إذا تدخَّلنا فى الجُرْح بمواد كيماوية أو خياطة أو خلافه فلا بُدَّ أن يترك أثراً ، فترى مكانه لامعاً ؛ لأن هذه المواد أتلفت مسام الجسم ؛ لذلك نجد مثل هذه الأماكن من الجسم قد تغيرتْ ، ويميل الإنسان إلى حكِّها (وهرشها) ؛ لأن هذه المسام كانت تُخرِج بعض فضلات الجسم على هيئة عرق ، فلما انسدت هذه المسام سببت هذه الظاهرة . هذا كله لأننا تدخَّلْنا فى الطبيعة التى خلقها الله .

إذن : فمعنى ﴿ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. ۝ ﴾ [الحج] هى الصيدلية التى تُعوِّض وتُعيد بناء ما تلف من جسم الإنسان .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ۝ ﴾ [الحج] أى : نُوضِّح لكم كل ما يتعلَّق بهذه المسألة ﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ .. ۝ ﴾ [الحج] وهى المضْغة التى قُدِّر لها أنْ تكون جنيناً يكتمل إلى أنْ يولد ؛ لذلك قال : ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ۝ ﴾ [الحج] أو نسقطه ميتاً قبل ولادته .

فإنْ قلتَ : وما الحكمة من خَلْقه وتصويره ، إنْ كان قد قُدِّر له أنْ يموت جنيناً ؟ نقول : لنعرف أن الموت أمر مُطْلق لا رابطَ له ولا سنّ ، فالموت يكون للشيخ كما يكون للجنين في بطن أمه ، ففي أيِّ وقت ينتهي الأجل .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً .. ⑤﴾ [الحج] قال : ﴿نُخْرِجُكُمْ .. ⑤﴾ [الحج] بصيغة الجمع ولم يقُلْ : أطفالاً إنما ﴿طِفْلاً .. ⑤﴾ [الحج] بصيغة المفرد ، لماذا ؟ قالوا : في اللغة ألفاظ يستوي فيها المفرد والجمع ، فطفل هنا بمعنى أطفال ، وقد وردتْ أطفال في موضع آخر في قوله سبحانه : ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ[1] .. ⑤⑨﴾ [النور]

وكما تقول : هذا رجل عَدْل ، ورجال عَدْل . وفي قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ يتكلم عن الأصنام فيقول : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي .. ⑦⑦﴾ [الشعراء] ولم يقُلْ : أعداء . وحينما تكلم عن ضَيْفه قال : ﴿هَـٰؤُلاءِ ضَيْفِي .. ⑥⑧﴾ [الحجر] ولم يقل : ضيوفي ، إذن : المفرد هنا يُؤدِّي معنى الجمع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ .. ⑤﴾ [الحج] وهكذا ، ينقلنا السياق من الطفولة إلى المرحلة النهائية من عمر الإنسان ، وسبق أنْ تحدَّثنا عن مراحل عمر الإنسان ، وأنه يمر بمرحلة الرُّشْد : رُشْد البنية حين يصبح قادراً على إنجاب مثله ، ورُشْد العقل حين يصبح قادراً على التصرُّف السليم ، ويُحسن الاختيار بين البدائل .

ثم تأتي مرحلة الأشد : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. ①⑤﴾ [الأحقاف] يعني : نضج نُضْجاً من حوادث الحياة أيضاً .

---

(١) حلم الصبي يحلم حُلماً : بلغ مبلغ الرجال . [القاموس القويم ١/١٦٩] .

ثم يقول تعالى : ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ .. ⑤﴾ [الحج] وأرذل العمر يعنى رديئه ، حين تظهر على الإنسان علامات الخَوَر والضعف ﴿لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .. ⑤﴾ [الحج] لأنه ينسى ، وعندها يعرف أن صحته وقوته وسلطانه ليست ذاتية فيه ، إنما موهوبة له من الله .

وإذا بلغ الرجل أرذلَ العمر يعود من جديد إلى مرحلة الطفولة تدريجياً ، فيحتاج لمَنْ يأخذ بيده ليقوم أو ليمشى ، كما تأخذ بيد الطفل الصغير ، فإذا تكلّم يتهته ويتلعثم كالطفل الذى يتعلم الكلام .. وهكذا فى جميع شئونه .

لذلك يقولون : الزواج المبكر أقرب طريق لإنجاب (والد) يعولُك فى طفولة شيخوختك ، ولم يقُلْ : ولداً ؛ لأنه سيقوم معك فيما بعد بدوْر الوالد ، يقولون : لحق والده يعنى سِنُّهما متقارب .

لكن ، لماذا يُرَدُّ بعضنا إلى أرذل العمر دون بعض ؟ الحق سبحانه جعلها نماذج حتى لا نقول : يا ليت أعمارنا تطول ؛ لأن أعمار الجميع لو طالتْ إلى أرذَل العمر لأصبح الأمر صعباً علينا ، فمن رحمة الله بنا أنْ خلق الموت .

ثم يقول تعالى : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⑤﴾ [الحج]

أى : كما كان خَلْق الإنسان من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مُضْغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة ، ثم أخرجه طفلاً ، وبلغ أَشُدَّهُ ، ومنهم مَنْ مات ، ومنهم مَنْ يُرَدُّ إلى أرذَل العمر ، كذلك الحال فى الأرض : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً .. ⑤﴾ [الحج]

هامدة : ساكنة ، ومنه قولنا للولد كثير الحركة : اهمد ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ ..﴿٥﴾﴾ [الحج] أى : تحركتْ ذراتُها بالنبات بعد سكونها .

والاهتزاز : تحرُّك ما كنت تظنه ثابتاً ، وليس ما كان ثابتاً فى الواقع ؛ لأن لكل كائن حركة فى ذاته ، حتى قطعة الحديد الجامدة لها حركة بين ذراتها ، لكن ليس لديْك من وسائل الإدراك ما تدرك به هذه الحركة . ولو تأملت المغناطيس لأدركتَ هذه الحركة بين ذراته ، فحين تُدلِّك القضيب الممغنط وتُمرِّره على قضيب آخر غير مُمغنط فى اتجاه واحد ، فإنه يكتسب منه المغناطيسية ، وتمرير المغناطيس فى اتجاه واحد معناه تعديل للذرات لتحمل شحنة واحدة سالبة أو موجبة ، فإنِ اختلف اتجاه الدَّلْك فإن الذرات أيضاً تختلف .

إذن : فى الحديد - رمز الصلابة والجمود - حركة وحياة تناسبه ، وإنْ خُيِّل إليك أنه أصمُّ جامد فى ظاهره .

لذلك نقول ﴿هَامِدَةً .. ﴿٥﴾﴾ [الحج] يعنى : ساكنة فى رأى العلم ، حيث لا نباتَ فيها ثم ﴿اهْتَزَّتْ .. ﴿٥﴾﴾ [الحج] يعنى : زادتْ ورَبَتْ وتحركتْ لإخراج النبات ، إنما هى فى الحقيقة لم تكُنْ ساكنة مُطْلقاً ؛ لأن فيها حركة ذاتية بين ذراتها .

ومعنى : ﴿وَرَبَتْ .. ﴿٥﴾﴾ [الحج] أى : زادت عن حجمها ، كما تزيد حبة الفول مثلاً حين تُوضَع فى الماء ، وتأخذ حظها من الرطوبة ، وكذلك فى جميع البقول ، وهذه الزيادة فى حجم الحبة هى التى تفلقها إلى فلقتين فى عملية الإنبات ، ويخرج منها زبان يتجه إلى أعلى فيكون الساق الذى يبحث عن الهواء ، وإلى أسفل فيكون الجذر الذى يبحث عن الماء . وتظل هاتان الفلقتان مصدرَ غذاءٍ للنبتة حتى

تقـوى ، وتسـتطيع أنْ تمـتصَّ غـذاءها من التـربة ، فـإذا أدَّتْ هاتان الفلقتـان مهمـتهما فى تغـذية النبتة تحـوَّلتا إلى ورقتـين ، وهما أول ورقتين فى تكوين النبتة .

كذلك ، نلاحظ فى تغذية النبات أنه لا يأخذ كُلَّ غذائه من التربة ، إنما يتغذى بنسبة ربما ٩٠ بالمائة من غذائه من الهواء ، وتستطيع أن تلاحظ هذه الظاهرة إذا نـظرتَ إلى إصيـص به زرع ، فسـوف تجـد ما نقص من التـربة كميـة لا تُذكَر بالنسـبة لحجم النبـات الذى خرج منها .

وحين تتأمل جذر النبات تجد فـيه آية من آيات الله ، فالجذر يمتد إلى أن يصل إلى الرطوبة أو الماء ، حتى إذا وصل إلى مـصدر غذائه توقَّف ، ولك أن تنظر مثـلاً إلى (كوز الحلبة) فسـوف تجد الجذور غير متساوية فى الطول ، بحسب بُعد الحبة عن مصدر الرطوبة .

﴿ وَرَبَتْ .. ۝ ﴾ [الحج] أى : زادت وانتـفشتْ ، كـما يحـدث فى العجين حين تضع فيه الخميرة ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ﴾ [الحج]

هذه صورة حـيَّة واقعـية نلاحظهـا جميـعاً عـياناً : الأرض تكون جرداء سـاكنة ، لا حـركةَ فيـها ، فـإذا ما نزل علـيها الـماء تغـيرتْ وتحركتْ ذراتهـا وتشقـقتْ عن النبات ، ولو حـتى بالمطر الصناعى ، كمـا كنا نرى فى عـرفة مثـلاً ينزل عليهـا المطر الصناعى فـيخـضرُّ الوادى ، لكن حينـما ينقطع الماء يعـود كمـا كان لعدم مـوالاة الماء ، ولو واليتَ عليها بالماء لصارت غـابات وأحراشاً وبساتين كالتى نراها فى أوروبا .

والمطر لا يحـتـاج أنْ تُسـوَّى له الأرض ؛ لأنـه يسْـقِى المـرتفع

والمنخفض على السـواء ، على خلاف الأرض التى تسقيـها أنت لا بُدَّ أن تُسوِّيها للماء حتى يصل إليها جميعاً .

فـإذا أنزل الله تعـالى المطر عـلى الأرض الجـدباء الجـرداء تراها تتـفتق بالنـبات ، فـمن أين جـاءت هذه البذور ؟ وكـيف لم يُصـبْهـا العطـب ، وهى فى الأرض طوال هذه الـفـتـرات ؟ الأرض هـى التى تحفظها من العطب إلى أن تجد البيـئة المناسبة للإنبات ، وهذا النبات الذى يخرج من الأرض دون تدخُّل الإنسان يسمونه (عِذْى) .

أما عن نَقْل هذه البـذور فى الصحراء وفى الوديان ، فـهى تنتقل بواسطة الريح ، أو فى رَوَث الحيوانات .

ومعنى : ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج] الزوج : البعض يظن الزوج يعنى الاثنين ، إنما الزوج كلمة مفردة تدل على واحد مفرد معه مثْله من جنسه ، فـفى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٤٥﴾ [النجم] فكل منهما زوج ، وكمـا نقول : زوج أحذية يعنى فردة حذاء معها فردة أخرى مثلها ، ومثلها كلمة توأم يعنى مولود معه مثله فكل واحد منهـما يسمى (توأم) وهمـا معاً (توأمـان) ولا نقول : هما توأم .

وهنا مظهــر من مظاهر دقَّـة الأداء الـقـرآنى : ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ .. ۝٥﴾ [الحج] لأن كل المـخلوقـات ، سواء أكـانت جـماداً أو نبـاتاً أو حـيواناً ، لا بُدَّ فـيه من ذكـر وأنثى ، هذه الزوجيـة قال الله فـيهـا : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. ۝٤٩﴾ [الذاريات] حتى فى الجماد الذى نظنه جمـاداً لا حركةَ فـيه ، يتكوَّن من زوجين : ســالب وموجب فى الكهرباء ، وفى الذرة ، وفى المغناطيس ، فكلُّ شىء يعطى أعلى منه ، فلا بُدَّ فيه من زوجيْن .

طبعت بمطابع دار أخبار اليوم

٢٥٠ قرشا